رسائل من نهرو إلى ابنته



ترجمة

الدكتور عبد العزيز عتيق



مكتبة النشر العربي

سلسلة الكتب المختارة

الكتاب الأول

رسائل من نهرو ...

إلى ابنته " انديرا "

رسائل من نهرو ...

إلى ابنته "أنديرا"

تأليف

جواهر لال نهرو

ترجمها

الدكتور عبد العزيز عتيق

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد



جواهر لال نهرو

الإهـــداء

إلى ابنتى ....

أذكر أنك قرأتِ هذا الكتاب فى الإنجليزية وأنت فى سن الثانية عشرة . وقد لاحظتُ مدى إعجابك وشغفكِ به حينما رأيتك تنفردين به ذات ليلة فى غرفتك ولم تتركيه حتى انتهيت من قراءته كله .

وأذكر أنك لم تضعيه عقب الفراغ من قراءته فى مكتبتك الخاصة بين الكتب التى قرأتها كما هى عادتك مع كل كتاب تقرئينه . وإنما رأيتك تحتفظين به بجانب سريرك مدة طويلة عاودت قراءته مرات ومرات . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل استهويت إلى قراءته شقيقتك الصغرى وأوصيت كل مَن تعرفين ونعرف بقراءته .

ثم أذكر كيف تمنيتِ عقب الفراغ من قراءته فى كل مرة لو تُرجم هذا الكتابُ إلى العربية كى يفيدَ مما فيه أكبرُ عدد ممكن من إخوتك وأخواتك فى العروبة .

وتحقيقاً لرغبتك النبيلة هذه يابنيتى قد ترجمتُ هذا الكتاب الذى أحببتُه بمقدار حبكِ له .

وهأنذا أقدمه لأخوتك وأخواتك فى العروبة .

أقدمه هدية منى إليكِ . . .

وهدية منكِ إليهم .

والدك

«ع . ع»

مقـــــدمة وقصة

هذه الرسائل الثلاثون التى أقدمها إلى القارئ هى رسائل شخصية كتبها زعيم الهند الكبير جواهر لال نهرو صيف عام ١٩٢٨ ووجهها إلى ابنتـــه « إنديرا » وهى فى سِنّ العاشرة .

ويحدثنا نهرو فى الرسالة الأولى أن « إنديرا » كان من عادتها حينما تكون معه أن تسأله أسئلة كثيرة عن موضوعات شتى . وكان من عادته كذلك أن يحاول الإجابة عن أسئلتها .

وفى صيف عام ١٩٢٨ حدث أن ذهبت « إنديرا » لقضاء أشهر الصيف فى مصيف « مَسورى » فوق جبال هملايا وبقى هو فى مدينة « الله أباد » مشغولا بقضايا الهند الوطنية ومشاركا فى تاريخها الذى كان يُصنَع من يوم إلى آخر .

من أجل ذلك لم يكن فى استطاعة كليهما أن يحدث صاحبه ، ولهذا أخذ يكتب إليها هذه الرسائل ، وفيها يقص عليها بإيجاز قصة كرتنا الأرضية .

وقد تضمنت هذه القصةُ صوراً حيّةً واضحة عن خَلْق الأرض ، والكائنات الحية الأولى ، وظهورِ الحيوان والإنسان ، ولأنواعِ الجنس البشرىّ ولغاتِه ، وعلاقاتِ اللغات بعضها ببعض ، والكتابةِ والأرقام ، وتكوُّن القبائل ، والبطريق وكيف بدأ وتطور حتى أصبح مَلِكا ، والمدنياتِ الأولى ومدنِ العالم القديم ، ومصرَ وكريتَ والهندِ والصين ، وبدءِ الدين ، وتقسيمِ العمل ، والتغيراتِ التى مهَّدت لها الزراعة ، والملاحةِ والتجارة ، وطبقاتِ الناس ، والملوكِ والمعابد والكهنةِ ، وغيرِ ذلك من موضوعات تتعلق بالعالَمِ القديم .

وهذه الرسائلُ التى كُتبت عام ١٩٢٨ غيرُ الرسائل الأخرى التى كتبها إليها وجُمِعتْ فى كتابه « لمحات من تاريخ العالم » والتى ترجم بعضَها إلى العربية الكاتبُ الصحفى المعروف الأستاذ أحمد بهاء الدين . فكتابُ « لمحات من تاريخ العالم » كتبه المؤلف — كما يقول فى مقدمته — وهو فى السجن خلال ثلاث سنوات

تقريباً من اكتوبر ١٩٣٠ إلى أغسطس ١٩٣٣ .

والكتاب الذى أقدمه إلى القارىء هنا يدل فى جملته على اطلاع نهرو الشامل ، وهضمه لما يقرأ ، وقدرته على التبسيط . يقرؤه من لا يعرف شيئاً عن موضوعاته فيعلم جديداً مفيدا عن العالم القديم . ويقرؤه من يعلم عنها معلوماتٍ مبتسرةً مبعثرة فيخرج منها بصورة واضحة مكتملة الأجزاء .

والكتاب مرة ثانية درس عملى لمن يكِل من الآباء أمر تثقيف أبنائه إلى المدرسة وحدها ، ولا يساهم بباعث الواجب أو المتعة النفسية فى تربيتهم . فنهرو الزعيم على الرغم من اشتغاله بالسياسة والكفاح فى سبيل استقلال وطنه ، لا ينسى أن يخص ابنته بجزء من وقته يعلمها فيه بعضَ ما لم تكن تعلم . وهذا درس بليغ للآباء يجدر بهم أن يعوه .

والكتاب مرة ثالثة يوحى إلى قارئه بأن نهرو سياسيّ واقعى متواضع . فى الرسالة الثانية منه وهو يحدث ابنته عن سوء حال الهند وقتذاك وآمالِه فى تحررها واستقلالها ونهضتِها ، نجد الرجل متواضعاً بعيدا عن المبالغة والانفعال فيقول :

« أما اليوم فوطننا الهند فقير جدا ، تحكمه دولة أجنبية ، ولسنا فيه أحرارا نفعل ما نريد . على أن الأمر لم يكن كذلك من قبل . ولعلنا بالجد والاجتهاد نستطيع أن نحرر وطننا ثانية ، وأن نُحسِّن من أحوال الفقراء منا ، وأن نجعل من الهند بلدا يسرُّ المرء أن يعيش فيه كما يعيش فى بعض البلدان الأوربية الأخرى » .

فأمنيته التى يرى السعى إلى تحقيقها بالعمل الجاد هى أن تصبح الهند كبعض البلدان الأوربية فى تقدمها لا أعظم بلد فى العالم . وهذا كلام سياسى مُحنَّك متواضع ، يزن ما يقول ، ويعرف ما يريد وما يستطاع دون تحمُّس أو إسرافٍ فى الخيال .

ونهرو فى عصرنا الحاضر يُعتبَر من أكبر الدعاة إلى السلام العالمى ، والتعايش السلمى وعدم الالتجاء إلى الحروب كوسيلة لحل مشاكل الدول المتعادية . وقد يتبادر إلى ذهن من لم يُلِمّ بحياة نهرو أن هذه نزعة جديدة طارئة على الرجل ولكنها كما يبدو نزعة قديمة أصيلة فى نفسه قوَّتها وأرهفتها تعاليم غاندى .

والكتاب مرة رابعة يزودنا بأمثلة على ذلك . ففى الرسالة

الثانية هنا يقول نهرو لابنته فى معرض نشأة الشعوب وتعصبها لنفسها وظن بعضها بأفضليتها على غيرها :

« وقد دفعهم هذا الظن الأحمق إلى الإغارة على غيرهم ومحاربتهم . وفاتهم كما يفوت الناسَ فى عصرنا الحاضر أن فكرة الحرب وقتلِ الناس بعضهم بعضاً أسخفُ وأعظم جريمة يرتكبها الإنسان فى حق نفسه وحق غيره . وهيهات أن يعود ذلك بنفع أىٍّ نفع على القاتل والمقتول ! » .

وفى الرسالة الحادية عشرة يتطرق به الحديث إلى الحرب العالمية الأولى والتى راح ضحيتها ملايينُ من البشر فيقول :

« هل تظنين أن من المدنية أو العقل فى شىء أن يقتل الناسُ بعضَهم بعضاً على هذه الصورة ؟ حينما يتقاتل اثنان فى الطريق فإن الشرطى يفرّقهما ولا يَسْلمان من لوم المارة لهما ورميهما بالحماقة !

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لرجلين يقتتلان فى الطريق فماذا يكون الأمر عندما تلجأ الدول الكبرى إلى الحرب وقتل بعضهم بعضاً بالآلاف والملايين ؟ لا شك أنها تكون

أشدُّ من هذين الرجلين المتقاتلين فى الطريق حماقة وجنوناً .
وما أشبه الدولَ التى تتناحر وتتحارب على هذا النحو برجلين متوحشَيْنِ فى الغابات . وإذا كان المتوحشون يُرْمَوْنَ بالبربريّة ، أفلا تكون الدولُ التى تتصرف تصرفهم أشدَّ بربرية ! ؟ » .

* * *

وقصة حياة جواهر لال نهرو جديرة بأن يقرأها ويَعِيَها الشبابُ لما حفلت به من صور البطولة والكفاح ، والبذل والتضحية ، وتحمل العذاب فى سبيل العقيدة ، والتسامح وضبط النفس ، والشجاعة والولاء .

وقد حباه الله شخصية قوية جذابة . وسرُّ جاذبيته يكمنُ فى بُعْدِهِ عن التَّعَصُّبِ والْمُوَارَبَةِ وفى صراحته وأمانة مقصده ، والتمسك بما يَدين به من مبادىء ساميةٍ مهما كلفه الأمر .

وإنسانيته كالضوء تنير الظلام ، ولا يقوى الظلام على أن يَطمِس نورَها . يعشَق الطبيعة بجبالها وطيورها وحيواناتها ، ويحب الأطفال حبا جما . وأشد مايكرهه هو الظلم وعدمُ استثمار المرء لما فيه من كفاءة ، واستغلالُ الإنسان لأخيه الإنسان .

وقد وصفه مرة زعيمه المهاتما غاندى فقال : « حُبُّ نهرو لوطنه يعادل حبَّه لشعوب العالم الأخرى. اشتراكىّ راسخ يريد لوطنه ما يستطيع الوطن أن يفعل. سياسى عملى يوفق بين مثله العليا وبيئته. وهو فى حياته الخاصة مثالىّ يحاول أن يعيش فى مستوى مثله العليا . »

وُلِد جواهر لال نهرو فى مدينة « الله أباد » يوم ١٤ نوفمبر ١٨٨٩ ومع أنه الآن شيخ فى الثامنة والستين فإنه دائم الحركة والعمل والإنتاج ، كأنما يستمد من قوة مبادئه التى يعيش لها وبها فيضا من الحيوية والنشاط .

لم يذهب جواهر لال نهرو فى مرحلة تعلمه الأولى إلى المدرسة ، وإنما بدأ تعليمه على أيدى معلمين يترددون عليه فى بيته ولهذا تكاد تكون نشأته الأولى خالية من مرح الطفولة وانطلاقها .

وقد كان تأثير والديه عليه فى طفولته قويا بالغ الأثر . فوالده « موتيلال نهرو » كان وطنيا كبيرا ومحاميا ناجحا. وكان جواهر لال يرى فيه عنوانَ القوة والشجاعة والمهارة . أما أُمُّهُ فقد غمرته بفيض زاخر من الحنان والحب .

وشخص ثالث أثر عليه فى طفولته هو « منشى مبارك على » وكيلُ والده . فقد اعتاد « منشى » أن يُمضىَ الساعاتِ الطوالَ يقص عليه فيها قصص « ألف ليلة وليلة » ، وحوادثَ ثورة الهند الكبرى التى قامت عام ١٨٥٧ . ويشير نهـــرو فى مذكراته إلى « منشى » هذا بقوله : « لقد مات منشى بعد أن كبرتُ وبلغتُ مبلغ الرجال ولا تزال ذكراه فى نفسى كأعزّ وأغلى ماأملك . »

وشخص رابع حبب إليه القراءة والاطلاع هو معلمه المستر فرديناند بروكس . فعن طريق هذا المعلم عرف نهرو كيف يتذوّق كتب سكوت ، وتشارلس ديكنز ، وثاكارى ، وويلز، ومارك تون ، وشيرلوك هولمز . كذلك حببه بروكس فى العلوم حتى لقد كان يقضى ساعاتٍ كثيرةً فى المعمل يُجرى تجاربَ فى الطبيعة والكيمياء .

وأحسن ثلاثة كتب أثّرت فيه وامتلأت بها نفسه فى طفولته هى « سجين زندا » و « ثلاثة رجال فى قارب » و « تيلبى » للكاتب الفرنسى ج . دى موريير . كذلك أحب الشعر ولايزال يحبه على الرغم من الأطوار التى مر بها والتغيرات التى طرأت على حياته .

وفى سن الخامسةَ عشرةَ رحل نهرو فى طلب العلم إلى انجلترة وأمضى بها سبع سنوات فى مدرسة هارو وجامعة كمبردج حيث درس علوم الطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات وحصل فيها على درجة جامعية . وفى انجلترة درس القانون أيضاً .

وفى عام ١٩١٢ عاد إلى الهند واشتغل محاميا أمام المحكمة العليا . ولكنْ مالبث أن تحوّلَ عن المحاماة إلى السياسة وانضم إلى المجلس الوطنى الهندى . وقد شعر باديءَ الأمر بتهيب شديد من الخطابة فى الاجتماعات العامة . وأولُ خطاب سياسى ألقاه كان فى مدينة « الله أباد » فى اجتماع عُقِد احتجاجا على قانون جديد أصدرته الحكومة للحدّ من حرية الصحافة . ولم يفرغ من إلقاء خطابه حتى نهض الدكتور بهادور صبْرُو زعيمُ الأحرار وعانقه وقبّله مهنئا .

بيد أن اتصاله الوثيق بفلاّحى الهند سرعان ماساعده فى التغلب على تهيبه وخجله . ومنشأ اتصاله بالفلاحين يرجع إلى أنه حدث فى مستهلّ حياته السياسية اضطراب بين مُلاكى الأراضى وزُرّاعها فى مقاطعته . ورغبةً منه فى تحرِّى الحقائق وتكوين صورة صحيحة عن الاضطراب أخذ نهرو يطوف

القرى . وفى أثناء ذلك كان يعيش بين الفلاحين ويتحدث إليهم ويأكل مما يأكلون . وكثيرا ما كانوا يهرعون إليه فى جموع كبيرة كلما أقبل عليهم . فلم يكن هناك بدٌّ من أن يخطب فيهم .

وأولُ لقاءِه بالمهاتما غاندى كان فى مؤتمر لوكنو Lucknow عام ١٩١٦ . ومع ما اشتهر به غاندى من كفاحٍ بطولىٍّ فى جنوب أفريقية من أجل الزنوج فإن أول فكرة كوّنها نهرو عنه هى أنه غير سياسى ، وغير أليف ، ومختلف عن غيره من الرجال .

ولكن سرعان ما شعر بانجذاب قوى نحو غاندى ، فقد وجد لديه وحده من بين كل زعماء الهند خطة للعمل . ولم يمض وقت طويل حتى أحسّ الرغبة فى الانضمام إلى حركة العصيان المدنى .

وحاول والده عبثاً أن يَثنيه عن هذه الرغبة ،فانضمامُ نهرو إلى حركة العصيان المدنى وعدمُ تعاونه مع الحكومة كان من شأنه أن ينتهى بالوالد إلى اعتزال المحاماة والسياسة والحياة الاجتماعية التى تعوّدها . وفوق ذلك لم يكن ليُطيق أن يرى ابنه الذى أحبه كل الحب يتعذّب فى غيابات السجن .

واشتد الصراع العقلى بين الوالد وولده وعن ذلك يقول نهرو : « لقد حاول كلانا أن يكون معقولا مع الآخر على قدر الإمكان . وكم من ليلة إثر ليلة هِمتُ على وجهى وحيدا معذباً أحاول أن أتلمّس مخرجا من هـذا الصراع » . ثم اكتشفَ جواهر لال لدهشته أن والده كان فى أيام الصراع هـذا ينام على الأرض ليجرب أىّ حياةٍ تكون حياةُ السجن بالنسبة لولده !

واستمر هذا الصراع عاما استطاع الابن فى نهايته أن يستميل أباه إلى وِجهة نظره . فظالمُ الحكومة من ناحية ، واعتدالُ والد نهرو وكبرياؤه وإحساسه القوى باحترام النفس جعله ينضم فى النهاية إلى حركة غاندى الجديدة ، ويُلقى فيها بنفسه وبكل ما يملك .

وعند ما اعتُقِل جواهر لال وزَجّ به المستعمرون الإنجليز فى السجن لم يتركه والده وإنما دخل السجن معه . وكذلك فعلتْ بقية الأسرة ، فشاركه مصيرَه فى السجن زوجتُه « كماله » وشقيقتاه « فجايالا كشمى بانديت » و « كريشنا هوثيسنغ » . ولم تنج أمه العجوز من تعذيب البوليس بضربها على رأسها والإلقاء بها على الأرض !

ويصف نهرو منظرا من مناظر اعتداءات البوليس على جماهير الوطنيين فيقول : « كان هجوم البوليس بخيلهم علينا منظرا رائعا ، لولا ما أمرهم به رؤساؤهم من الاعتداءات الغاشمة على الجماهير . وقد تركت المعركة كثيرا من الوطنيين مُطَرَّحين على الأرض ، بعضهم لايقوى على الحركة والبعض الآخر يتلوى من شدة الألم .

وكأنَّ ذلك لم يَشف غيظَ رؤسائهم فإذا بهم يُعيدون الكرَّة برجالهم وخيَّالتهم وينهالون علينا ضربا مُبرحا بعصيٍّ من الخيزران طويلة غليظة !

وكل ماأذكره بالنسبة إليَّ أنى اضطررت إلى البقاء فى مكانى لاأخضع ولا أتقهقر . وقد شعرت من كثرة ماأصابنى من الضرب أنى نصف أعمى . . . وأحيانا كان يستفزنى الغضب فأهُم بأن أرد على الضربة بضربات . . .

وكان سهلا على أن أُطوِّحَ بضابط البوليس من فوق صهوة جواده وأمتطيه أنا . ولكنَّ رياضتى الطويلة لنفسى وضبطى لجماحها منعنى ذلك . ومن ثَمَّ لم أرفع يدى إلا لأحميَ وجهى

من الضربات . وكيف أفعل غير هذا وأنا أدرك تماما أن أىّ اعتداء من جانبنا لن يؤدىَ إلا إلى مأساة فظيعة تتمثل فى إطلاق الرصاص علينا وقتل جموع كثيرة من رجالنا ؟» .

وفى السجن أفنىَ جواهر لال أكثر من أحد عشر عاما من عمره . . . لا يكاد يخرج منه إلا ليعود إليه ! ومع أنه كان يضطر أحيانا أن يعيش وحيدا فى محبسه فإنه عرف كيف يؤنس نفسه . وفى ذلك يقول : « لم أكن وحيدا تماما في محبِسى . فعشراتُ العصافير كانت تتخذ من سقف محبسي المهدم أعشاشا لها . ورُب سحابةٍ هائمة فى السماء زارتنى وتسللتْ أذرعتها الكثيرة من ثقوب عديدة وملأت المكان على بضباب رَطب » .

وكان نهرو وهو فى السجن يقضى بعض يومه فى الغَزْل ومعظمَه فى الاطلاع والكتابة . فكلُّ كتبه الشهيرة مثلُ « ترجمة حياته » و « اكتشاف الهند » و « لمحات من تاريخ العالم » ألّفها فى السجن .

كلُّ هذا الكفاح واحتمالُ العذاب من أجل استقلال وطنه وحريتِه ورفاهيته ومستقبله أكسبه شهرةً عظيمة وزاد مِن تعلق

الشعب به . وقد أهّله كلٌّ ذلك إلى مركز الرجل الثانى فى الهند بعد غاندى . وأولاه الشعبُ ثقته فانتخبه سكرتيرا عاما للمجلس الوطنى الهندى لمدة عشر سنوات ثم رئيسا لهذا المجلس ست مرات . وهى ثقة لم يحظ بها أحدٌ غيرُه من زعماء الهند وساسته .

وأسعدُ يوم فى حياة نهرو هو يوم ١٥ أغسطس ١٩٤٧ يوم استقلال الهند وخلاصها من ربقة الاستعمار البريطانى الذى عانت منه نحو مائتى سنة. وعن ذلك اليوم المشهود يقول نهرو فى خطابه التاريخى الذى ألقاه ليلة الاستقلال : « منذ سنوات عديدة ونحن — من أجل الهند — على موعد مع القدر . وقد جاء اليوم الذى نُنجز فيه وعدَنا » .

لقد كان هذا اليوم نقطة التحول فى تاريخ الهند وفى حياته أيضا . وسرعان ما تحوّل نهرو الثائر إلى سياسىّ ناجح . وكان أولُ عمل قام به عقب الاستقلال هو تضميد الجروح الناشئة عن تقسيم الهند إلى دولتين : الهند وباكستان . ومِن ثمّ صرّح بقوله : « كلُّنا أبناء الهند مهما كانت الأديان التى تَدين بها . كلٌّ منا له مِثْلُ ما للآخر من حقوق ومنافع . وعليه مثل ما على الآخر من واجبات . »

وفى عهود الاستعمار كان نظام الحكم الذاتى يسود مقاطعات الهند ، ولهذا لم تكد تستقلّ حتى قام نهرو بحملة ضد قيام الحكم الذاتى فى المقاطعات وأعلن أن الهند دولة مدنية لا دينية Secular State .

ومنذ الاستقلال أصبح نهرو أكثر اقتناعا بأن نهضة الهند لا تتحقق إلا باستمساكها برسالة غاندى والتى تتلخص فى الدعوة إلى السلام واتحاد طوائف الشعب وطبقاته .

وتحت زعامة نهرو المُلْهَمَة وُضِع للهند دستورٌ ديموقراطىٌّ يكفُل للجميع الحريةَ الدينية ، والحريةَ السياسية ، ويُسَوِّى بين المرأة والرجل فى الحقوق السياسية وغيرها ويُلغِى امتيازات الطبقات .

على أن السياسة لم تصرفه عما تحتاج إليه الهند من إصلاح اقتصادى واجتماعى . ففى الميدان الاقتصادى وُضِع ونفّذ فى عهده مشروعُ السنوات الخمس لتنمية الثروة الزراعية والاقتصادية . وفى الميدان الاجتماعى أُلغى نظامُ الإقطاع .

أما فى السياسةُ الخارجية فقد اقتفى نهرو خُطُوَاتِ زعيمه

الروحي غاندي . والذي يراقب نشاطه في المجال الدولي يرى أن كلّ جهوده ومساعيه تهدف إلى « استقرار السلام العـــالمي وصيانته ، وحلّ المشاكل الدولية بوسائل سلمية بعيدة عن الحرب أو التهديد . »

وفي نهرو ترى شعوبُ آسيا وكلُّ الشعوب التي لاتزال تئن تحت وطأة الاستعمار أملا جديدا ، ونصيرا أميناً .

وكثيرا ماصرح بأن سياسته الخارجية تقوم على أساس الصداقة مع جميع الشعوب ، والتعاونِ معها لخير الإنسانية ، والحيادِ الإيجابي ، والبعدِ عن الأحلاف العسكرية .

وهو يهدف من وراء ذلك — كما صرح أكثر من مرة — إلى أن تكون الهند دائما في مركز يؤهّلها للقيام بدور الوساطة والمصالحة بين الدول المتخاصمة . وإذا كانت الهند تتمتع الآن بسمعة عالمية حسنة فالفضل في ذلك راجع إلى سياسته الرشيدة الناجحة .

* * *

تلك بإيجاز قصةُ حياة جواهر لال نهرو حتى اليوم وهى — كما ترى — قصةٌ تحفِل بصور رائعة للبطولة جديرةٍ بالاستيعاب والاحتذاء، صورٍ يتجلى فيها نهرو الإنسانُ والزعيمُ والسياسيُّ والاشتراكى، ونهرو المصلحُ والعالِمُ وداعيةُ السلام ونصيرُ الإنسانية... ثم أخيراً نهرو صديقُ مصر والعرب، والذى نُكن له ولشعبه كلَّ حب واحترام، وتقدير وإعجاب.

عبد العزيز عنبو

مصر الجديدة

١٦ مارس سنة ١٩٥٧

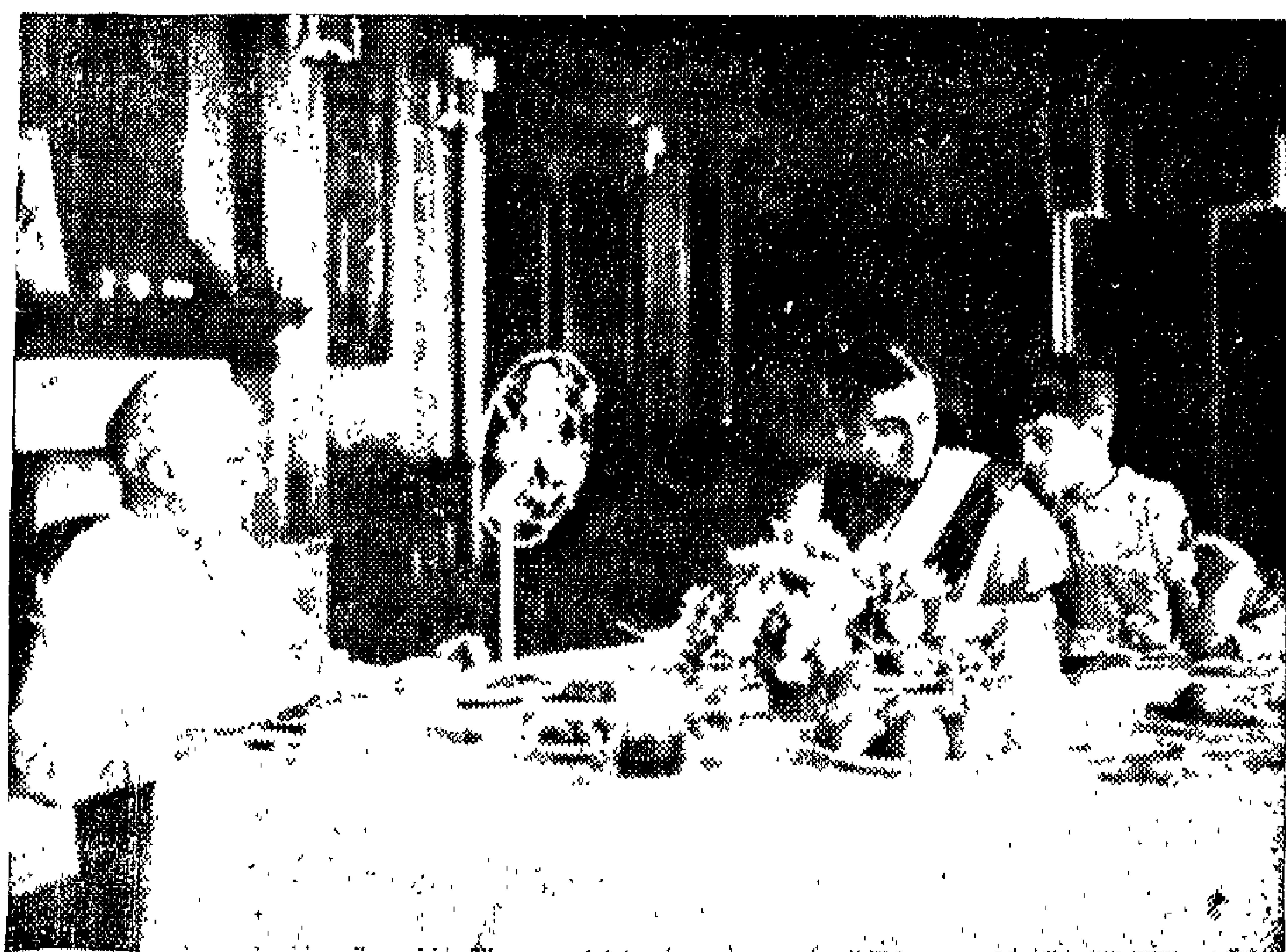
مقدمة الطبعة الأولى

كتبتُ هذه الرسالة إلى ابنتى « إنديرا » عام ١٩٢٨ حينما كانت تقضى الصيف فى مصيف « مَسُورى » وكنت أنا فى مدينة « الله أباد » .

لقد كانت رسائلَ شخصيةً موجهةً إلى فتاة فى العاشرة من عمرها . ولكنَّ بعض الأصدقاء ممن أعتز بنصيحتهم رَأَوْا فيها بعضَ القيمة والنفع ، ولهذا اقترحوا علىَّ طبعها لتكُون فى متناول الجماهير من القراء .

ولستُ أدرى مدى استقبالِ النشء من فتية وفتيات لهـذه الرسائل ، ومدى رضائهم عنها واستحسانهم لها . ولـكنى أرجو حينما يقرءونها أن يبدءوا يفـكرون تدريجيا فى دنيانا هذه كأسرة كبيرة من الأمم والشعوب .

كذلك أرجو — وأنا أقدمها لهم على استحياء — أن يجدوا فيها بعضَ المتعة التى شعرتُ بها عند كتابتها . على أن هذه الرسائل تنتهى نهـــاية مقتضبة . فالصيف الطويل قد انقضى ،



جواهر لال نهرو مع ابنته « إنديرا » التى كتب إليها هذه الرسائل وابنها

واضطرت « إنديرا » أن تعود من مصيفها ، وفى صيف عام ١٩٢٩ لم تتمكنْ أن تذهب إلى مصيف « مَسُورى » أو أىّ مصيف آخر .

والرسائل الثلاثُ الأخيرة هنا تبدأ عهدا ومرحلة جديدة وهى إلى حدٍ ما تبدو فى غير موضعها . وقد ضممتها إلى هذه الرسائل لعدم وجود فرصة أخرى أمامى لاستكمالها .

ولما كانت الرسائل مكتوبة بالانجليزية فإن دائرة انتشارها بلا شك محدودة . وهذه الغلطةُ غلطتى أنا ، ولا أملك إلا أن أعالجها الآن بترجمتها إلى لغتنا القومية ليَعُمَّ نشرُها والنفعُ بها .

الله أباد　　　　　　　　　ج . ن

نوفمبر سنة ١٩٢٩

مقـــدمة الطبعة الثانية

كان المقصودَ بهذه الرسائل فى الأصلِ شخص واحـد هو ابنتى « إنديرا » ، ومن أجل ذلك ترددتُ طـويلا قبل وضعها فى متناول جماهير القراء . ولـكنَّ حُسْنَ استقبال القراء والصحافة لها شجَّعنى وهدَّأ من مخاوفى وشكوكى .

وقد نفـدت الطبعة الأولى منذ زمن طويل حتى أنَّ مؤلفَ الرسائل لا يملك منها نسخة لنفسه . ولهذا أُعيـــدُ طبعها ، مع تصحيح بعض أخطاء ظهرت فى الطبعة الأولى .

وكانت الحفاوة التى حَظِيَت بهـا هذه الرسائلُ حافزاً لى على أن أضيف إليها . بيـد أنى تحـالفتُ مع سيدة [1] غيور لا تترك لى خدمتُها أىَّ وقت أو ميل للانشغال بغيرها من الأمور .

وفى العـام المـاضى ١٩٣٠ حينما زُجَّ بى فى سـجن

---

(١) يقصد السياسة .

« تيني » naini وأصبح لدىّ متسع من الوقت ، راودتني ثانية فكرة متابعة كتابة هذه الرسائل . ولكنّ ما أتيح لى كتابته فى السجن من الرسائل لم يكن بالكثير ؛ لأن السجن لا يزوّد نازليه بكتب المراجع .

وفوق ذلك كان عقلى مشغولا عن الماضى البائد بالتاريخ الذى كان يُصْنَع فى الهند من يوم إلى آخر . لقد خرجتُ من السجن لأعود إليه بعد غياب أسبوع عنه ، ومرة ثانية مرّت الشهور علىّ فيه .

ومهما يكن من أمر فقد كان قرار العام الجديد الذى صممتُ عليه فى أول يناير من هذا العام ١٩٣١ هو أن أستأنفَ كتابة هذه الرسائل وأواظبَ عليها . لقد نجحتُ فى تنفيذ هذا القرار بعض الشيء . ولكنْ حدث أن أُفرِج عنى من السجن فجأة وبأسرعَ مما كنتُ أتصور يوم ٢٦ يناير . بيد أنّ مآسيَ الهند الوطنية ودوّامةَ أحوالها العامة استحوذتْ علىّ وألقتْ بى هنا وهناك .

وإنى لأنتظر ثانية هدوء « زنزانة السجن » وسلاسلَها

لأتمكن من الاستمرار فى تحقيق هذا الواجب . واجب كتابة هذه الرســـائل . وفى الوقت ذاته تكبُرُ « إنديرا » وقد لا أستطيع أن أجارىَ معرفتها النامية طويلا .

الله أباد

اكتوبر سنة ١٩٣١

« جواهر لال نهرو »

الرسالة الأولى

١ — كتاب الطبيعة

من عادتكِ حينما نكون معا أن تسأليني أسئلة كثيرة عن موضوعات شتى . ومن عادتي إزاء أسئلتك أن أحاول الإجابة عنها .

والآن وأنت في « مَسُورِي » وأنا في « الله اباد » لا أستطيع أن أحدثك أو تحدثيني .

ومن أجل ذلك سأكتب إليك من وقت إلى آخر رسائلَ قصيرةً ، أقص عليكِ فيها بإيجاز قصة كُرَتِنا الأرضيةِ ، وقصةَ الأقطار التي انقسمت إليها سواء أكانت هذه الأقطار كبيرة أم صغيرة .

أعرف أنكِ قرأتِ قليلا عن تاريخ إنجلترا وتاريخ الهند . ولكنّ انجلترا ليست إلا جزيرةً صغيرة ، كما أن الهند على

اتساع رقعتها ومساحتها ليست إلا جــــزءا صغيرا من سطح الأرض .

فإذا أردنا أن نعرف شيئا عن قصة كرتنا الأرضية كان علينا أن نفكر لا فى القطر الصغير الذى وُلِدنا فيـــه وننتمى إليه ، ولكنْ فى كل الأقطار وكل الشعوب التى استوطنتِ الكرةَ الأرضيةَ .

على أن رسائلى إليك لن تتسعَ إلا لقدر ضئيل جدا من هذه القصة . ولكنى أرجو أن تجدِى فى هذا القليل من العلم ما يوقظ اهتمامك ويجعلك تفكرين فى الدنيا كُلاً لا جزءا ، وفى سكانها إخوةً وأخوات .

وعند ما تكبُرين ستتاح لك الفرصةُ لتقرئى قصةَ كرتنا الأرضية وقصةَ شعوبها مبسوطةً فى كتب التاريخ . وعندئذ ستجدين هذه القصة ألذّ وأمتعَ من أىّ قصة أخرى قرأتِها .

ولا شك أنك تعرفين أنَّ الأرض قديمةٌ جدا وأنّ عمرَها يرجع إلى ملايين السنين . وقد ظلتْ أجيالا ودهورا طويلةً لا تعرف الإنسان . وقبل ظهور الإنسان على ســــطحها وُجد

الحيوان فقط . وقبل وجود الحيوان مرّتْ على الأرض عصورٌ طويلةٌ خلتْ فيها من كل أنواع الحياة .

ومن الصعب أن نتخيل أن كرتنا الأرضيةَ المكتظةَ الآن بأنواع الحيوان والإنسان كانت فى يوم من الأيام خِلْواً منهما .

ولكنّ العلماء وغيرَهم ممّنْ درسـوا هذه الموضوعات وفكروا فيها كثيرا يخبروننا بأنه قد مر على الأرض حِقبةٌ طويلة من الزمن كانت حرارتُها أشدَّ من أن تسمحَ لأىّ كائنٍ حَىٍّ بأنْ يعيش عليها .

وإذا تصفحنا كتبَ هؤلاء العلماء ودرسنا الصخورَ والحفرياتِ المتخلِّفةَ عن الحيوانات القديمة (fosslis) فإننا نستطيع أن نتبين بأنفسنا أن الأمر كان كذلك .

يمكنك الآن أن تطالعى التاريخَ فى كتبه . ولكنْ فى العصور المغرقة فى القدم وقبلَ ظهور الإنسان لم تكن هناك كتب بالمعنى المعروف لنا الآن ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف نعرف إذن ما حدث على الأرض قبلَ الإنسان ؟ .

لا نستطيع مطلقا أن نجلس ونتخيل كل شيء . ان هذا بطبيعة الحال أمر هَيِّنٌ لذيذ ، إذ نستطيع أن تتخيل أى شيء ، وأن نخترع أجملَ الأقاصيص الخيالية ! ولكنّ هذا الخيال لا يمكن أن نعتبره حقيقة ، لأنه غير قائم على أساس من الحقائق التى شاهدناها .

وإذا لم يكن لدينا كتب مكتوبة فى هذه العصور ، فإن لدينا لحسن الحظ بعض الأشياء التى تنبئنا ـ كالكتب ـ بأمور كثيرة .

فلدينا مثلا الصخورُ والجبال والبحار والنجوم والأنهار والصحارى وبقايا الحيوانات القديمة . فكلُّ هذه الأشياء ، وما أشبهها هى كتبنا التى نستمد منها قصة الأرض الأولى ، والطريق الصحيح لفهم هذه القصة لا يكون بالقراءة عنها فى كتب الآخرين ولكنْ بالرجـــوع إليها فى كتاب الطبيعة الأكبر . ولعلك لهذا تسارعين إلى تعلم هذه القصة من دراسة الصخور والجبال . تخيلى كم تكون المعرفة عن هذا الطريق ساحرة فاتنة !

فكلُّ حجر صغير تَرَيْنَهُ فى الطريق أو على جانب الجبل قد يكون صفحةً من كتاب الطبيعة وقد يكون قادرا على أن يخبرك بشيء ما إذا عرفتِ كيف تقرئينه .

ولتكونى قادرةً على قراءة أى لغة كالهندية أو الأردية أو الإنجليزية مثلا فإنك بحاجة إلى تَعَلُّمِ أحرف هجائها؛ ولهذا يجب عليكِ أن تتعلمى أحرف هجاء لغة الطبيعة لتستطيعى قراءةَ قصتها فى كتبها المؤلفة من الأحجار والصخور .

وربما تستطيعين — وأنت فى هذه السن الصغيرة — أن تعرفى قليلا كيف تقرئين فى كتاب الطبيعة . فإذا رأيتِ حصاةً مستديرةً ملساء ألا تخبرك هذه الحصاةُ شيئا ما ؟ ألا تخبرك كيف أصبحتْ مستديرة ملساء لامعة بدون زوايا أو حافات خشنة ؟

فإذا كَسرتِ صخرةً كبيرة إلى قَطعٍ صغيرة فإن كل قطعة من هذه القطع الصغيرة تكُون خشنةً فى حد ذاتها ولها زوايا خشنة أيضا . وهذه القطعة الخشنة من الصخر ليست كالحصاة المستديرة الملساء . وعلى ذلك فهذه الحصاة الملساء ستقص عليك قصتها إذا كان لك عينان مفتوحتان وأذنان مرهفتان . ستقص عليك أنها كانت منذ زمن بعيد قطعةً من صخرة تشبه تماما فى الزوايا والحافات الكثيرة أىَّ قطعة قد تكسرينها من صخرة كبيرة .

ومن الجائز أن هذه القطعة من الصخر قد استقرت على

سفح جبل ، ثم نزل المطرُ فقذف بها إلى وادٍ ما حيث صادفت جدولا متدفقا من جبل فدفعها ذاك إلى الأمام بتياره حتى انتهت إلى نهر صغير . ثم حملها هذا النهرُ الصغير إلى نهر آخر كبير . وعلى طول رحلتها وتحركاتها تآكلت حافاتُها واستحال سطحها الخشن إلى آخر أملس لامع . وبهذا صارت الحصاةَ التى ترْينها والتى خلَّفها النهرُ لسببٍ ما وراءه حيث وجدتِها أنتِ .

فإذا حملها النهر فى طريقه فإنها تصبح أصغر فأصغر حتى تصير فى النهاية حبة رمل تلحق بأخواتها على ساحل البحر وتصنع شاطئا جميلا يلعب عليه الأطفال الصغار ويبنون من رماله قصورا .

فإذا استطاعت حصاةٌ صغيرة أن تُعلِّمكِ كلَّ هذا ، فما أكثر ما نتعلم من الصخور والجبال والكائنات والمخلوقات الكثيرة الأخرى التى نراها حولنا ! .

الرسالة الثانية

كيف كتب أول تاريخ

—

لقد أبنتُ في الرسالة التي بعثتُ بها إليك أمس أنَّ علينا أن ندرسَ قصةَ الأرض في كتاب الطبيعة . فهذا الكتاب يشتمل على كل شيء ترْينه حولك كالصخور والجبال والوديان والأنهار ، والبحار والبراكين - وهذا الكتاب مفتوح دائماً أمام أعيننا ، ولكنْ ماأقل مَن يهتمون به منا أو يحاولون قراءته ! فإذا تعلمنا كيف نطالعه ونتفهمه فما أكثر القصصَ القيمة الشائقة التي يُنبئنا بها ! فالقصص التي نطالعها في صحائفه الحجرية أروعُ بكثير من أية قصة خيالية .

ونتيجةً لذلك يمكن أن نتعلم من كتاب الطبيعة هذا شيئا عن كرتنا الأرضية في أقدم العصور التي سبقت نشأةَ الحيوانات على سطحها . وكلما تابعنا تَصَفُّحَ هــذا الكتابِ رأينا ظهور الحيوانات الأولى، ثم تزايدَها وتكاثرَها على مَمَرِّ الأيام والأجيال.

ثم يتلو بعد ذلك ظهورُ الإنسان : الرجال والنساء ، ولكننا نراهم مختلفين تمام الاختلاف عن رجال عصرنا ونسائه . فنراهم متوحشين ليس بينهم وبين الحيوان كبيرُ اختلاف .

وبالتدريج وعلى توالى العصور نراهم اكتسبوا الخبرة والتجربة وبدءوا يفكرون . ومما لاشك فيه أن قوة التفكير هذه جعلت نسبة التفاوت بينهم وبين الحيوان كبيرة . وإنها لقوة حقيقية تلك التى جعلتهم أقوى من أكبر وأشرس حيوان .

واليوم تشاهدين رجلا صغيرا يركب على ظهر فيل كبير ضخم الجثة ويوجهه حيث يشاء. فالفيل كبير وقوى، بل هو أقوى كثيرا من سائسه الهندى « الماهوت » (mahaut) الراكب على عنقه . ولكن « السائس » يستطيع أن يفكر ، وبذلك صار سيدا والفيلُ خادما . وهكذا كلما نما تفكير الإنسان أصبح أمهرَ وأعقلَ .

وبعقله وتفكيره كشف أشياء كثيرة . فقد عرف كيف يُشعل النارَ ، وكيف يَفلح الأرضَ ، وكيف يزرع النباتات التى يُحَصِّلُ منها على طعامه ، وكيف يصنع ثيابا للباسه ، وبيوتا لسكناه . ثم رأينا كثيرا من الرجال والنساء يعيشون معا ، وبهذا ظهرت لنا المدن الأولى .

وقبل نشأةِ هذه المدنِ وظهورِها اعتاد الإنسان أن يجول فيما حوله متنقلا من مكان إلى آخر ، وربما كان يُقيم فى نوع من الخيام . وهذا الإنسان الأولُ لم يعرف حينئذ كيف يستخرج طعامَه من الأرض عن طريق الزراعة . لهـــذا لم يكن لديه خَضرواتٌ ، ولا أرزٌ أو قمحٌ يصنع خبزه منهما . فمعظم الأشياء التى تأكلينها الآن لم تكن معروفةً له . ولربما كان يعيش على بعض الفواكه والبقول التى أنبتتها الأرضُ . ولكنَّ الأكثرَ احتمالا هو أنه كان يعيش على الحيوانات التى كان يقتلها .

وكلما زادت المدائن واتسعت تَعَلَّمَ الناسُ كثيرا من الفنون الجميلة ، كما تعلَّموا الكتابة أيضا . ولكنَّ حِقبةً طويلة من الزمن قد مرَّت دون أن يعرف الناسُ فيها ورقَ الكتابة ، ولهذا كانوا يكتبون إمّا على لِحَاءِ بعض الأشجار أو سَعَفِ النخيل . وتجدين حتى الآن فى المكتبات كتُباً بأكملها مكتوبةً فى تلك العصور القديمة على سَعَفِ النخيل .

ثم ظهر الورقُ فَسَهُلَتِ الكتابةُ . ولكنْ لم تكنْ هناك مطابعُ تُخرج آلافَ النسخ من الكِتَابِ الواحد كما هو الحال اليوم . فالكتابُ كان يُكْتَبُ مرة واحدة فقط ثم يُنْسَخُ باليد

وبمجهود شاق. ونتيجةً لذلك لم تَكنْ هناك كتبٌ كثيرة متدوَالة، كما لم يكن من الممكنِ لشخصٍ ما أن يذهبَ إلى مكتبة لِشِرَاء أيِّ كتاب. فكان إذا احتاج شخصٌ إلى كتابٍ مَا لم يجد أمامه إلا أن يستأجر مَن ينسخ له نسخةً منه. وتلك عمليةٌ كانت تستغرق بطبيعة الحال وقتا طويلا، وتتطلب مالا كثيرا.

ولكنَّ الناس فى تلك العصور بدءوا يكتبون كتابةً جميلة، وفى مكتباتنا الآن بالهند كثيرٌ من تلك الكتب التى كُتِبتْ كتابةً جميلة بخط اليد، ولا سيما باللغات السَّنْسِكْرِيتِيَّةِ والفارسية والأُردية. وكثيرا ما كان يُزَيِّنُ النُّسَّاخُ جوانبَ صفحات هذه الكتب بالأزهار والرسوم المختلفة.

ومع نشأة المدن ونموِّها تكونتِ الأقطارُ والشعوبُ تدريجيا، كما بدأ السكان المتجاورون فى القطر الواحد يعرف بعضُهم بعضا. لقد كانوا يظنون أنهم أحسنُ وأفضل من سكان الأقطار الأخرى. وقد دفعهم هذا الظن الأحمقُ إلى الإغارة على غيرهم ومحاربتهم. وفاتَهُمْ كما يفوت الناسَ حتى فى عصرنا الحاضر أنَّ فكرةَ الحرب وقتلِ الناسِ بعضِهم بعضا أسخفُ وأعظمُ جُرْمٍ يرتكبه الإنسانُ

فى حق نفسه وحق غيره . وهيهات أن يعود ذلك بنفع أىٍّ نفع على القاتل والمقتول .

ولكى نتعلم قصةَ الأيام الأولى للمدن والأقطار كان لابد من الرجوع إلى الكتب القديمة ، وإنْ كان الموجودُ منها فى متناوَل أيدينا ليس بالكثير .

على أن هناك أشياء أخرى تساعدنا على بلوغ غرضنا . فهناك ملوكُ العصور القديمة وأباطرتُها . فهؤلاء اعتادوا أن يُسجِّلوا كلَّ أو أهمَّ ماتمَّ أوحدث فى مدة حكمهم على أعمدةٍ وألواحٍ من الحجر . وقد حدا بالملوك والأباطرة على تدوين تواريخهم على الأحجار أن الكتبَ لاتُعَمِّرُ طويلا ، وأنَّ أوراقَها مُعَرَّضَةٌ للتلف وجَرَيان العُثَّةِ فيها .

ولعلكِ تذكرين رؤيتَكِ لعمود « أشوكا » الكبيرِ فى قلعة « الله أباد » . فعلى هذا العمود المصنوع من الحجر قدسُجِّلَ « اعلانُ أشوكا » الذى كان مَلِكا عظيما فى الهند منذ مئات كثيرة من السنين . فإذا ذهبتِ إلى متحف « لوكنو » فسوف تجدين هناك كثيرا من الألواح الحجرية وقد حُفِر عليها نَصُّ « إعلان أشوكا »

ثم ماذا نتعلم من دراسة التاريخ القديم للشعوب والأقطار المختلفة ؟ إننا نتعلم الأشياء العظيمة التى عُمِلت فى الصين ومصر منذ أقدم العصور ، حينما كانت الأقطارُ الأوروبية مأهولةً بقبائلَ متوحشةٍ ! ثم نتعلم أيضا الكثيرَ عن أيام الهند العظيمة حينما كُتِبتِ الملحمتان الكبيرتان الرامايانا والماهبهاراتا وحينما كانت الهند قطرا غنيا قويا .

أما اليوم فوطننا الهند فقـــير جدا تحكمه دولةٌ أجنبية[1] ، ولسنا فيه أحرارا نفعل ما نريد !

على أن الأمر لم يكن كذلك من قبل ، ولعلنا بالجد والاجتهاد نستطيع أن نحرر وطننا ثانية ، وأن نُحَسِّنَ مِن أحوال الفقراء منا ، وأن نجعل من الهند بلدا يَسُرُّ المرءَ أن يعيش فيه كما يعيش فى بعض البلدان الأوروبية فى عصرنا الحاضر .

وبعد ، فسوف أقص عليك فى رسالتى القادمة أروعَ قصة وأعنى بذلك قصةَ الأرض منذ نشأتها الأولى .

---

(١) يشير الى بريطانيا وقبل استقلال الهند

خلق الأرض

تعرفين أنَّ الأرضَ تدور حول الشمس وأنَّ القمرَ يدور حولَ الأرض . وربما تعرفين أيضاً أن عدداً من الأجرام الأخرى تدور مثلَ الأرض حــــول الشمس . وكلُّ هذه ، والأرضُ من بينها ، تُسمَّى « كواكبَ الشمس السيارة » أما القـــمرُ فيسمى تابعَ الأرض لأنه يتبعها على الدوام . وبعضُ الكواكب الأخرى لها توابعها أيضاً .

فالشمسُ والكواكب وتوابعها تؤلف أسرةً سعيدة تُسمَّى « المجموعة الشمسية » . ولفظةُ « الشمسيّ » منسوبة إلى « الشمس » ولِكَوْنِ الشمس هى أم الكواكب سميت المجموعةُ كلُّها بالمجموعة « الشمسية » .

وأنتِ فى الليـــــل تشاهدين آلافَ النجوم فى السماء .

والكواكبُ منها ليست إلا عدداً قليلا فلا يمكن أن تسَمّى هذه القلة نجوما مطلقاً .

هل يمكنك بعد ذلك أن تُمَيِّزى بين الكوكب والنجم ؟ فالكواكبُ مثلُ أرضنا صغيرةٌ فى الحقيقة إذا ما قورنت بالنجوم ولكنها تظهر فى السماء أكبرَ من النجوم لأنها أقربُ إلينا منها . وكذلك الحالُ مع القمر الذى هو فى حقيقته صغير ولكنه يبدو كبيرا جدا لأنه أقربُ كذلك من الأرض . ولكنَّ الطريقَ الحقيقى للتفرقة بين النجوم والكواكب هو أنْ ترَىْ إذا كانت تتلألأ أم لا . فالنجوم تتلألأ ولكنّ الكواكبَ تُضىء فقط لأنها تستمد نُورها من الشمس. فالنور الذى نراه على الكواكب والقمر ليس إلا نورَ الشمس .

أما النجومُ الحقيقية فهى كشمسنا تنير بنفسها لأنها أجسامٌ ملتهبةٌ شديدةُ الحرارة . وشمسنا نفسُها التى نراها ككُرةٍ كبيرة من نار ليست إلا نجماً وإذا كانت تظهر لنا أكبر جدا من غيرها فذلك لكونها أقربَ إلينا من غيرها .

ولهذا فأرضنا تنتسب إلى أسرة الشمس ، أعنى المجموعة

الشمسية . فنحن نظن أنَّ الأرضَ كبيرةٌ جدا ، وإنها لكبيرةٌ فعلا ، بموازنتها بأجسامنا الصغيرة . وليس أدلَّ على كبرها من أنَّ الانتقالَ فيها من مكان إلى آخر قد يستغرق أسابيعَ وشهورًا بوسائل النقل السريعة كالقطار والباخرة . ومع أن الأرضَ تبدو لنا كبيرةً جدا فهى ليست إلا ذرةً من التراب معلقةً فى الفضاء .

فا الشمسُ تبعد عنا بملايين الأميال ، أما النجوم الأخرى فأبعد من ذلك بكثير جدا .

ويحدثنا علماء الفلك أن الأرضَ وسائرَ الكواكب الأخرى كانت فى أول أمرها جزءا من الشمس . وكانت الشمس حينئذ كما هى الآن جِرماً كبيرا ملتهبا فظيعَ الحرارة . ولسببٍ ما انفصلت أجزاء من الشمس عنها وظلت فى الفضاء ، ولكنها لم تتخلص تماماً من أمِّهَا الشمس . وكأنما قد شُدَّتْ إليها بحبل فبقيت لذلك تدور بسرعة حول الشمس . وهذه القوةُ الغريبة التى شبهتُها بحبل هى قوةٌ من خاصتها أن تجتذب الأشياء الصغيرة إلى الكبيرة . إنها القوة التى تجعل الاشياء تسقط

بوزنها. ولكون الأرض أكبرَ شيءٍ قريب منا فهى لهذا تجتذب كلَّ شيء على سطحها .

وعلى هذا النَّحْوِ انفصلتْ أرضُنا عن الشمس أيضا . ولا بد أنها كانت وقتذاك حارةً جدا يحيط بها هـــواء وغازاتٌ قوية الحرارة ، ولكونها أصغر بكثير جدا من الشمس بدأت تبرُد . والشمس أيضا تَقِلُّ حرارتُها على مرور الأعوام ، ولكنها بحاجة إلى ملايين السنين كى تبرُد كالأرض .

ولما كانت الأرضُ قطعةً صغيرة من الشمس فقد استغرقت فى برودتها وقتا أقل بكثير مما تتطلبه الشمس لتصل إلى مثل هذه البرودة. ولما كانت الأرضُ حارةً فإنه لم يستطع شيء أن يعيش عليها من إنسان أو حيوان أو نبات وإلا احترق بحرارتها .

وكما انفصلتِ الأرضُ عن الشمس ، كذلك انفصل القمرُ عن الأرض . وكثيرٌ من الناس كانوا يظنون أن القمر قد ظهر من جوف المحيط الهادى بين أمريكا واليابان .

هكذا بدأتِ الأرضُ تبرُد واستغرقت فى ذلك وقتاً طويلا. فبالتدريج بدأ سطحها يبرُد شيئا فشيئا ، وإن كان جوفُها لا يزال

شديدَ الحرارة . وحتى الآن إذا نزلتِ في منجمٍ فحم فإنك تشعرين بالحرارة تزداد فيه كلما أوغلتِ في جوفه ، ومن المحتمل إذا استطعتِ النزول إلى مسافات بعيدةٍ في جوف الأرض أن تجديها ناراً حمراء .

كذلك بدأ القمرُ في البرودة، ولما كان أصغرَ من الأرض كان أسرع منها في البرودة . فهو يبدو بارداً برودة لطيفة . أليس كذلك ؟ إنه يسمى « القمرَ البارد » . ومَن يدرى فقد يكون مملوءاً بأنهار من الثلج وبِحقول من الجليد والصقيع ؟

وعند ما بردت الأرض تكاثف كلُّ البخار المتجمع في الهواء ثم تساقط مطرا ، ولا بد أن السماء قد أمطرت مطرا غزيرا حينذاك ! ولا بد أن فجواتِ الأرض الكبيرةَ قد امتلأت بكل هذا الماء الغزير، وهكذا تكوّنت البحارُ والمحيطات . ولما زادت برودةُ اليابس والمحيطات أصبح من الممكن للكائنات أن تعيش على سطح الأرض وفي المحيطات والبحار .

هذا وسوف نتحدث في الرسالة التالية عن نشأة الكائنات الحية الأولى .

الرسالة الرابعة

الـكائنات الحيـــة الأولى

عرفنـا من رسالتنا السابقة أن الأرضَ ظلت لعهـد طويل شديدةَ الحرارة لدرجةٍ لا تسمح للـكائنات الحية أن تعيشَ على سطحها . فمتى إذن بدأت الحيـــاةُ على الأرض ؟ وما هي أولى الكائنات الحية ؟ هذا بالطبع سؤال هام ، ولـكنَّ الإجابةَ عليه في الوقت ذاتِه صعبةٌ .

دعينا أولا نبحث في حقيقة الحياة . قد تقولين إن الناسَ والحيـــواناتِ كائناتٌ حيـةٌ . ولـكنْ ما رأيك في الأشـجار والشجيرات والأزهار والخضراوات ؟ لا شك أنها كذلك كائنات حية : فهي تنمو ، وترتوى بالمـاء ، وتستنشق الهواء ثم تموت . والفارق الأساسي بين شـجرة وحيوان هو أن الشجرةَ لا تتحرك بينما الحيوان يتحرك . هل تتذكرين أني أريتُكِ بعضَ

النباتات بحدائق « كِيُو » فى لندن ؟ لقد كان من بين النباتات، التى شاهدتِها نباتان يأكلان الذباب .

كذلك يوجد بعضُ الحيوانات « كالإسفنج » مثلا ، مما تعيش فى أعماق البحر ولا تتحرك أبدا ، ولذلك يكون من الصعب أحيانا أن نقولَ عن شىء بذاته إنه حيوان أونبات . وإذا أتيح لك مستقبلاأن تدرسى علم النبات أو علم الحيوان فسوف ترَيْنَ بعضَ الغرائب مما لا يصح أن يسمى حيوانا كلُّه أو نباتا كله .

وينبئنا البعضُ أن الأحجارَ والصخورَ قد يوجد فى بعضها « نوعٌ من الحياة » كما أن بَعْضاً آخر منها يشعر بنوع من الألم ! ولكنَّ ذلك أمرٌ يصعب تصوُّرُه أو تصديقه .

ولعلك تذكرين السير « جاجاديش بُوز » الذى حضر لمقابلتنا فى « جنيف » ، والذى أرانا بعضَ التجارب الدالةِ على أن فى النباتات قدْرًا كبيرا من الحياة ، والذى يَظن أن الحياة إلى درجةٍ ما موجودةٌ حتى فى الأحجار . وهكذا ترَيْنَ أنه ليس من السهل أن نحدد ما هو حىٌّ وما ليس بحىٍّ . ولكنْ دعينا نترك الأحجار الآن جانباً وننظر فقط فى الحيوانات والنباتات .

من المُسَلَّم به أنه يوجد إلى وقتنا هذا عددٌ هائلٌ من الكائنات

الحية من جميع الأنواع فيوجد الإنسانُ بنوعيه الذكر والأنثى ، ومن هؤلاء الأذكياء والأغبياء ، والعقلاء والمجانينُ . كذلك توجد الحيوانات ومنها ما هو ذكي جـــدا كالأفيال والقِرَدَةِ والنمال ، ومنها ماهو غبيٌّ . فالأسماكُ وكثيرٌ غيرُها من الحيوانات التى تعيش فى البحار لا تزال أحطّ فى سُلّم الحياة . وفى آخر هذا السلم نجد الإسفنج ، ونجد مايشبه السمك الهـــلامى أو « قنديل البحر » ، كما نَجِدُ تلك الكائناتِ التى نِصِفُها حيوانٌ ونِصفُها نبات .

والآن علينا أن نحاول البحث لمعرفة ما إذا كانت كلُّ هذه الأنواعِ المختلفةِ من الحيوانات قد ظهرت إلى الوجود مرة واحدة وفى وقت واحد ، أو أنها ظهرت بالتدرج واحدا بعد الآخر . ولكن كيف نصل إلى ذلك ؟

ليس لدينا بطبيعة الحال كتب منظّمة عن تلك العصور القديمة ، فهل يستطيع أن يساعدنا كتاب الطبيعة الأكبر ؟ نعم إنه يستطيع مساعدتنا بلا شك . فنحن نجد فى الصخور عِظام حيوانات يسميها العِلْمُ « حفرياتٍ » (fosslis) . وحينما نعثر على واحدة من هذه الحفريات نستطيع القولَ بأنَّ الحيوانَ الذى

وُجِـــدَتْ عظامُه فى الصخرة لا بد أنه قد عاشَ فى العصر الذى تَكَوَّنَتْ فيه هذه الصخرةُ . وأظنك لا زلتِ تذكرين أنك رأيت مُتَحَجِّرَاتٍ كثيرةً من هذا النوع ما بين كبيرة وصغيرة بمتحف « ساويث كِنْزِنْجتُون » فى لندن .

ومن الثابت أن الحيوان عندما يموت يتلاشَى لحمُه وشحمه بسرعة ، أما عظامه فتبقى إلى أمد طويل جداً . وهذه العظامُ الباقيةُ هى ما نجده ، وهى التى تعلمنا شيئاً عن حيوانات العصور الأولى . فإذا أخذنا حيواناً لا عظامَ له كالسمك « الهلامى » مثلا فهل نستطيع أن نعرف عنه شيئا ؟ الجواب على ذلك لا ، لأنه لا يترك شيئا وراءه بعد موته .

أما إذا اختبرنا الصخور بعناية وجمعنا كلَّ العظام القديمة المتحجرة التى نجدها فإننا نستطيع أن نرى أن أنواعا شَتَّى من الحيوانات عاشت فى عصورٍ مختلفةٍ ولم تأت كلُّها معا من المجهول . ففى أول الأمر وُجدت حيواناتٌ بسيطة جداً كالأصداف والمحارات مثلا . فالأصـــدافُ الجميلةُ التى تجمعينها على شاطىء البحر هى أغطية عَظْمِيَّةٌ لحيوانات قد ماتت . وإذا انتقلنا إلى عصور متقدمة نسبيا وجدنا حيوانات أكثرَ تعقيدا كالثعابين وأخرى أكبرَ من الفيل ، ثم طيورا

وحيوانات أشبهَ بطيورٍ وحيوانات عَصرنا . وفى آخر كل هذه نجد بقايا الإنسان .

وهكذا يبدو كأنما هناك نظامٌ مُعَيَّنٌ فى ظهور الحيوانات على سطح الأرض . فأولا نجد أبسط الحيوانات ، ثم يتلو ذلك نوعٌ أرقى منها يتزايد على مر الأيام رقيا حتى يصل إلى الإنسان الذى يُسَمَّى الآن أرقى أنواع الحيوانات .

ولعل أكثرَ الدراسات لذةً وإمتاعا وأهميةً هى تلك التى تُبين لنا كيفيةَ نُمُوِّ الإسفنج البسيط والسمك المحارى وتطورِّها وترقيها حتى صارت إلى ما هى عليه الآن . ولما كانت هذه معضلةٌ يحتاج حَلُّها إلى شىء من الشرح والتفصيل فإنى أتركها إلى فرصةٍ أخرى وأنتقل بك إلى موضوع رسالة اليوم وهو الكائنات الحية الأُولى .

من الجائز أن أولى الكائنات الحية عند ما بردت الأرض كانتْ موادٌّ ملساء شبيهةَ بالسمك الهلامى (jelly-like) تعيش فى البحر بدون أصداف أو عظام . ولهذا السبب لا توجد بقايا متحجرةٌ لها ، وكلُّ مانعرفه عنها ليس إلا مجردَ حدْسٍ وتخمين . ولا يزال يوجد فى البحر حتى يومِنا هذا أشياء كثيرة شبيهة بالسمك الغضروفى أو الهلامى ، وهى أقرب ماتكون فى شكلها إلى الدائرة أو الكُرَةِ . ولما كانت خالية من الأصداف أو العظام فإن شكلها دائمُ التَّغَيُّرِ . وهى أشبهُ ما يكون بهذه الأشكال .



هل تلاحظين النقطةَ التى فى وسط كل من هذه الأشكال الثلاثة ؟ أنها تسمى « النواة » وهى نوع من القلب . فهـــذه الحيوانات أو سَمِّيهَا مَاشِئْتِ لها طريقة عجيبة يستطيع بها الحيوان الواحد أن ينقسم اثنين . وكَيْفِيَّةُ ذلك أنَّ كلَّ حيوان منها يأخذ فى النحافة والتمدد فى مكانٍ ما ويستمر الأمر كذلك حتى ينقسم إلى شيئين كالسمك الغضروفى يشبه كلٌّ منهما الحيوان الأصلى . وهذا الانقسام يتم بعد مراحل من التغيرات تمثِّلها أو تقرِّبها الأشكال الآتية :



ستلاحظين هنا أن القنواتِ أو القلبَ ينقسم أيضا وأن كل قسم من القسمين الجديدين يحصل على قطعة منه . وبهذه الطريقة تستمر تلك الحيوانات فى التكاثر .

ولا بد أن أولَ كائن حَيٍّ وُجِد على أرضنا كان شيئاً من هذا النوع الذى أوضحتُه لك . فإذا صح ذلك فما أبسطه وأقله من

شيء يُمَثِّلُ الحياةَ ! وفى هذه الفترة مِن عُمْرِ الأرض لم يكن هناك على كل سطحهـــا شيء أحسنُ أو أرقى من ذلك . فالحيوانات الحقيقية لم تكن قد ظهرت بعد ، والإنسان لم يكن ليظهر قبل ملايين الناس .

وفى سلسلة الوجود تلت هذه الكائنات الحيةَ الشبيهةَ بالسمك الغضروفِيِّ أعشابُ البحار والأصدافُ والمحاراتُ، و «أبو جلمبو» (crabs) والديدانُ . . . ثم وُجِدَ السمكُ . ونحن نعرف الكثير عنه بواسطة أصدافه وعظامه الصلبة التى خلَّفَـها لنا لِنَعْثرَ عليها بعد ملايين السنين وندرسَها . فالأصدافُ تُرِكت مختلطةً ومغطاةً بطبقة من الطين والرمال فى قرار البحر وهكذا ظلت مصونةً بعناية . ثم صارت تلك الطبقةُ المُغَطِّيَةُ للأصداف صُلبةً بسبب ضغطِ وثِقَلِ الطبقات التى تعلوها ، وعلى توالى العصور ازدادت تلك الطبقة صلابةً حتى صارت متحجِّرةً ؛ وبهذا الأسلوب تكونتِ الصخورُ فى قاع البحر . ولا بد أن الزلزال أو شيئا كالزلزال قذف بها من جوف البحر فأصبحت بذلك أرضا جافة . ثم على مَرِّ السنين غُسِلت الصخرة وتفتتْ بفعل الأنهار والأمطار، وشيئا فشيئاً ظهرت الإصداف التى اختفت واستكَنَّتْ فيها أجيالا وأجيالا .

إنَّ ذلك يُوَضِّح لنا كيف عثرنا على هذه الأصدافِ وبقايا الحيوانات القديمةِ وكيف كَشفْنا بعدَ دراستِها حقيقةَ ما كانتْ عليه أرضُنا فى العصورِ الأولى قبلَ ظهورِ الإنسانِ .

هذا وسوف نُعالج فى الرسالةِ القادمة كيف تطورتْ هذه الحيواناتُ البسيطةُ وارتقتْ حتى أصبحتْ على ما هى عليه الآن .

الرسالة الخامسة :

ظهور الحيوانات

لقد رأينا أنّ أولَى دلائلِ الحياةِ على أرضنا ربمــا كانت حيوانات بحرية دنيئة بسيطة ونباتات مائية ، استطاعت أن تعيشَ فى الماء فقط . وإذا كانت قد خرجت من الماء وجفتْ فلا بد أن تكون قد ماتت كما يموت السمكُ الهلامى اليوم عندما يَجْنَحُ إلى الشاطىء ويجِفُّ .

ولكنْ لا بُدّ أنه كان فى تلك الأيامِ مياهٌ ومستنقعاتٌ أكثرُ عمـا يوجد الآن . فالسمكُ الهلامى وغيرهُ من حيواناتِ البحر التى كان لها جلودُ أصلبُ نوعاً استطاعتْ أن تَبقَى على أرض جافة مدةً أطولَ قليلا من الحيوانات الأخرى التى كانت تفنَى بسرعة عَقِبَ خروجها من الماء . وهكذا أصبح السمكُ الهلامى الأملسُ وما أشبهه أقلَّ فأقلَّ عدداً لعدم قدرته على مواجهة الأرض الجافة بسهولة ، كما أصبحت الحيواناتُ ذاتُ الأغطيةِ والجلودِ الصلبة أكثرَ فأكثرَ عدداً .

وهذا شيء جدير بالملاحظة ، فهو يعني أن الحيوانات تُهَيِّء نفسَها وتُكَيِّفُها ببطء تبعاً للبيئات المختلفة التي تعيش فيها .

ولقد رأيتِ بمتحف « ساويث كِنز نجتُون » في لندن كيف أنْ الطيورَ والحيوانات في الأقطار الباردة حيث يكثر الجليد تكون بيضاء كالثلج ، وكيف أنها في الأقطار الحارة حيث تكثر الأشجارُ والنباتاتُ تكون خضراء أو زاهيةَ اللون . وذلك هو معنى تكييفِ نفسِها تبعاً للبيئات المختلفة التي تعيش فيها . فهي تُغَيِّرُ لونَها حمايةً لنفسها من أعدائها ، إذ لا يمكن أن تُرَى بسهولة إذا كان لونُها كلون بيئاتها . فحيواناتُ الأقطارِ الباردةِ لها فِرَاءٌ تقيها البردَ وتمنحها الدفء . وجلدُ النمر أصفرُ مُخَطَّطٌ أو مُرَقَّطٌ كأنه ضوء الشمس النافذ من خلال الأشجار في الغابة . ولذلك يكون من الصعب رؤيةٌ النمر في الغابة الكثيفةِ الأشجار .

وهذه الظاهرةُ الهامةُ ظاهرةُ أنّ الحيواناتِ تتهيأ وتتكيف وتتلون تبعاً لبيئاتها — أمرٌ له أهميته . والحيواناتُ بطبيعةِ الحال لا تحاول أن تُغَيِّرَ نفسَها بنفسها ، ولكنْ تلك التي تتغير منها

تكون لديها فرصةٌ أحسنُ للحياة والبقاء ، إذ نتيجةً لهذا التغيير تُوائم وتُوَفّق بينها وبين بيئاتها .

وهذا يُوضح أشياء كثيرةً . فهو يُوضح أن الحيوانَ البسيط ينمو ببطء ويأخذ فى التحول إلى نوع من الحيوان أرقى . ومَن يَدْرِى فلعل ذلك الحيوانَ قد تحول تدريجيا إلى الإنسان خلال ملايين السنين التى استمرت فيها عمليةُ نموّه ورقيّه .

وليس فى استطاعتنا أن نرى التغيراتِ التى تَمْضِى على الدوام فى طريقها حولنا ، نظراً لبطئها وقِصَرِ أعمارنا . وإنما تَمضى الطبيعةُ دائما فى عملها وتغييرها للأشياء والارتقاء بها نحو الكمال دون توَقُّفٍ أو استراحة .

ولعلك تذكرين أنَّ الأرضَ كانت قد بدأت تصير أبردَ ، كما بدأت تجف ببطء . ولما صارت أبرد تغير الجوُّ كما تغيرت أشياء أخرى كثيرةٌ . وكما تغيرتِ الأرضُ كذلك تغير الحيوانُ ببطء فظهر منه أنواعٌ أرقى وأحدث من سابقتها . ففى أول الأمر وُجِدَتْ فقط حيوانات بحرية بسيطة ثم تَلَتْهَا حيواناتٌ بحرية معقدة . وكلما ازدادت مساحة اليابس بعد ذلك ظهرتِ الحيواناتُ التى عاشت على سطحه والتى عاشت فى الماء كالتماسيح أو الضفادع .

ثم تلا ذلك الحيوانات البرية التي عاشت على الأرض كلية . ثم بعد ذلك ظهرت إلى الوجود الطيور التي استطاعت أن تحلق في الجو .

لقد حدثتك عن الضفدعة . وهي موضوع دراسة شائقة مهمة ؛ فحياتها الخاصة تُرينا إلى حد ما كيف تغيرت الحيوانات تدريجا من حيوانات تعيش في الماء إلى حيوانات تعيش على ظهر الأرض .

فالضفدعة كانت في الأصل سمكة ، ولكنها صارت فيما بعد أشبه بحيوانات الأرض . وفي الأيام التي ابتدأت الحياة فيها على الأرض كانت هناك غابات كثيرة . ولابد أن الأرض كانت كلها مستنقعات تكتنفها هذه الأدغال والغابات الكثيفة التي رُدمت وطُمِرَت فيما بعد ، وبضغط الأتربة والصخور الكثيرة تحولت ببطء إلى فحم حجري . وأنتِ تعرفين أننا نحصل على فحمنا الحجري من مناجم عميقة في جوف الأرض . وعلى ذلك فمناجم الفحم الحجري هي في الواقع أدغال وغابات قديمة ترجع إلى عصور بعيدة جدا .

ولقد كانت الثعابين الكبيرة والسحالي والتماسيح من بين

الحيوانات الأَولية التى ظهرتْ على الأرض والتى بلغ طول بعضها مائةَ قدمٍ . هل تستطيعين أن تتخيلى أن سحلية أو ثعباناً طوله مائةُ قدم ؟ ولعلك تذكرين رؤيةَ بقايا هذه الوحوش فى متحف لندن .

ثم ظهرت فيما بعدُ حيواناتٌ أكثرُ شبهاً بالحيوانات التى نراها فى عصرنا الحاضر وهذه تُسَمَّى حيواناتٍ ثَدْيِيَّةً لأنها تُرْضِع صِغارها . وتلك كانت فى أول أمرها أكبرَ مما هى عليه الآن . والقردُ أقربُ الحيوانات شَبَهاً بالإنسان . ولهذه المشابهةِ القويةِ بينه وبين الإنسان يعتقد البعضُ أن الإنسانَ سليلُ القردِ . ومعنى ذلك أنه كما أنّ كلّ حيوانٍ قد تَكَيَّفَ على حسب بيئته وأخذ فى الارتقاء تدريجيا كذلك الإنسان لم يكنْ فى أول أمره إلا قرداً راقياً .

وبطبيعة الحال لقد استمر الإنسانُ أو بعبارة أخرى لقد استمرت الطبيعةُ جادَّةً فى ترقيته حتى ليظنُّ الإنسانُ أنْ لانهايةَ لرُقِيِّه ، وحتى ليتخيّلُ نفسَه مُخالفًا تمامَ المخالفة لسائر الحيوانات .

وعلَى حسب هذا الرأيِ نكون أبناءَ أعمامِ القردة ! ولا غرابةَ فى ذلك ، فمَنْ يُراقِب الناسَ فى تصرفاتهم يرى أن الكثيرَ منهم لايزالون يتصرّفون كما تَتَصَرَّفُ القِرَدَةُ !!

الرسالة السادسة

ظهور الإنسان

لقد رأينا فى رسالتنا السابقةِ كيف بدأت الحياةُ على الأرض تظهر فى صُوَر بسيطةٍ جدا ، ثم كيف تطورت ببطء خلال ملايين السنين حتى صارت على ما هى عليه اليوم . كذلك لاحظنا قاعدةً هامةً جدا فى تطور الحياة ، هى أنّ الحيوانات تحاول دائما أن تتكيّف تبعا للبيئات التى تعيش فيها . وبعمليةِ المحاولةِ هذه نمتْ فى الحيواناتِ صفاتٌ جديدةٌ صارت بها أرقى وأكثرَ تعقيداً .

ونستطيع أن نرى هذا التغيرَ والتقدمَ فى صُوَر عِدّةٍ . فمثلا كانت هناك فى أول الأمر حيواناتٌ بلا عظام ، وهذه لم تستطع أن تبقى طويلا ، وأخذت ترقى شيئا فشيئا حتى تكونت لها عظامٌ ، وكانت السلسةُ الفقرية أولاها . ومن ثَمّ وُجِد لدينا منها قسمان : الحيواناتُ التى لا عظامَ لها ، والحيواناتُ ذاتُ العظام . ولا تخلو أجسامُ ما ترَيْنَ

حولك الآن من النـاس والحيوانات من عظام. ثم ترَيْنَ مرةً أخرى أن الحيوانات البسيطةَ كالسمك تضع بيضا وتتركه . ففى كل مرة تضع آلافاً من البيض ولـكنْ بدون عنايةٍ به . فالسمكةُ لا تبالى مطلقا بصغارها ، فهى تضع البيض حيثما اتفق ولا تعود إليه أبدا. ولما لم يكن هناك مَن يُعنَى بالبيض فإنّ معظمَه يَفسُدُ ويموت ، أما القليلُ الباقى فينمو ويصيرُ سمكا . أليس ما يَفسُدُ ويموت من البيض خسارةً كبيرة ؟ وكلما مضينا صُعُدًا واختبرنا الحيوانات الأرقى وجدنا أن بيضَها أو صِغارَها أقلُّ عددا ، ولـكنها تُعنَى بها خيرَ عناية . والدجاجةُ أيضا تضع بيضا ولـكنها ترقد عليه حتى يفقِس ، وعندما تخرج الفراريجُ الصغارُ فإن أنثى الدجاج تُغَذّيها حتى تـكبُرَ وعندئذ تنصرف عنها ولا تُعنَى بها .

ثم حدث تغيرٌ كبير فى الحيوانات الأرقى ؛ أعنى الحيوانات الثديية والتى أَوْمَأْتُ إليها فى رسالتى السابقة . فهذه الحيواناتُ الثدييّةُ كالـكلاب والقططِ والأرانب لا تضع بيضا ولـكن الأنثى منها تحتفظ بالبيضة بداخلها ثم تَلِدُ حيوانا صغيرا كامِلَ الخلقةِ ثم تُرضعهُ وتُغَـذّيهِ بلبنها ، وهكذا تُعنَى الأنثى من الحيوانات الثديية بصغارها عنايةً كبرى . ومن الغريب أنكِ تجدين حتى فى

هذا النوع الراقى من الحيوانات شيئا كثيرا من الخسارة والضَّياع. فالأرانبُ تَلِدُ كلَّ بضعةِ أشهرٍ عدداً كبيراً من صغارها يموت بعضُها . ولكنَّ الحيواناتِ الأرقى كالفيل مثلا تَلِدُ واحداً فقط وتَرعاهُ رعايةً تامةً وهكذا تَرَيْنَ أنه كلما ارتقت الحيواناتُ فإنها لا تضع بَيْضاً وإنما تلد حيواناتٍ لا اختلاف مطلقا بينها وبين أمهاتها إلا فى كونها أصغرَ منها . والحيواناتُ الأرقى تلد عادةً فى كل مرة حيوانا صغيرا واحدا . ولعلكِ لاحظتِ أن هذا النوعَ من الحيوانات الراقيةِ لديه شىءٌ من الحنانِ والحبِّ لصغاره . والإنسانُ هو أرقى الحيواناتِ جميعا ، ولذا تجدين أنَّ الأمهاتِ والآباء يُحِبُّونَ أطفالَهم كلَّ الحب ويَرْعَوْنَهُمْ كلَّ الرعايةِ .

إن الإنسانَ على هذا الوضعِ لابد أن يكون قد تطور أصلا من الحيوانات الدنيئة . ومن الجائز أنَّ الإنسانَ الأولَ لم يكنْ كالإنسان الذى نعرفه اليوم . ولابد أنه كان نِصْفَ قردٍ ونِصْفَ إنسانٍ وأنه كان فى حياته أقربَ إلى حياةِ القِرَدَةِ .

هل تذكرين ذَهابك معنا لمقابلة أستاذ فى « هيدلبرج » « Heidelberg » فى ألمانيا ؟ لقد أطلعنا على متحفٍ صغير مملوء ببقايا حيوانات قديمة كان منها جُمْجُمَةٌ قديمةٌ أبقاها محافظا عليه

فى خِزَانةٍ مُقفلة . فهذه الجمجمة يُظَنُّ أنها كانت لإنسان من أولئك القدامى الأوائل يُسَمَّى « إنسانَ هيدلبرج » ذلك لأنَّ الجُمْجُمَةَ وُجِدتْ مدفونةً بالقرب « من هيدلبرج » . وبطبيعة الحالِ لم يكن فى العصر الذى عاش فيه صاحبُ هذه الجمجمة « هيدلبرج » أو أىُّ مدينة أخرى .

فى تلك الأيامِ البعيدة فى القدم والتى كان الإنسانُ الأولُ فيها جوّالاً يَهيم على وجهه كانت الدنيا باردةً جدا ، حتّى لَيُطلَقُ على هذه الفترة من الزمن «العصرُ الجليدىُّ» لكثرة الجليد بها . وقد امتدت جبالٌ وأنهارٌ من الجليد — كالتى توجد الآن بالقرب من القطب الشمالى — حتى وصلت إلى ألمانيا وانجلترا . ولابد أنّ الناسَ وقتذاك قد عاشوا معيشةً صعبةً ومرّت بهم أوقاتٌ عصيبةٌ سيئة ، فقد كان غيرَ ميسّرٍ لهم أن يعيشوا إلا فى مناطقَ بعيدةٍ أو خالية من الجليد نسبيا .

ويُخبرنا العلماء أنَّ البحرَ الأبيضَ المتوسطَ فى العصر الجليدىّ لم يكن فى الأصل بَحْرًا بل كان عبارةً عن بحيرة أو بحيرتين ، كما أن البحرَ الأحمرَ لم يكن له وجودٌ أيضاً وإنما كان أرضاً . ومن المحتمل أنَّ الجزءَ الأكبرَ من الهند كان جزيرةً ، وأنه كان

هناك بحرٌ فى «البنجاب» وبعضِ مقاطعاتنا الهندية. تخيلى أن الهندَ الجنوبية والهندَ الوسطى كانتا كجزيرة واحدة كبيرة يفصلها البحر عن جبال هملايا! كان عليك إذا شئتِ السفرَ إذن إلى «مَسُورِى» أن تقطعى جزءا من الرحلة بالباخرة!

ولا بُدَّ أنَّ الإنسانَ حينما ظهرَ لأولِ مرةٍ على ظهر الأرض كان محوطا بحيواناتٍ كثيرةٍ ضخمة، وأنه كان يعيش فى خوف دائم منها. وشتان بينه وبين أخيه إنسانِ اليوم الذى يَسُودُ الدنيا ويُخْضِع الحيواناتِ لإرادَتِهِ ومشيئته. فمنها ما يَرُوضُها ويذلّلها كالحصانِ والبقرةِ والفيلِ والكلبِ والقِطّ وكثيرِ غيرِها، ومنها ما يأكله، ومنها ما يَصيده كالأسدِ والنَّمِرِ لمجردِ المتعةِ والمسرةِ.

ولم يكن الإنسانُ فى أولِ نشأته ذلك السيدَ المتحكمَ، وإنما كان مخلوقا بائساً، وكان هدفاً لأن يُفْتَرَسَ هو نفسُه، ولذلك كان يحاولُ جُهدَه أن يظلّ بعيدا وبمنأى عن الوحوش الضاريةِ المفترسة.

وتدريجاً أخذ الإنسانُ يَرْقَى بنفسِه ويزدادُ قوةً حتى صارَ

أقوى الحيوانات جميعا . ولكن كيف تسنَّى له ذلك ؟ لم يتهيأ له ذلك بقوة جسمه ؛ فالفيلُ مثلا أشدُّ وأكثرُ منه قوةً ، وإنما استطاع أن يفعلَ ذلك بقوة عقلِهِ وذكائِهِ . ومن السهل أن نَتتبع هذا النموَّ العقليَّ منذ نشأةِ الإنسانِ إلى وقتنا هذا . فالذكاء — ولا شيء غيرُ الذكاء — هو الذى يفصل الإنسانَ ويُمَيِّزُه على سائر الحيواناتِ الأخرى ، ولا فارقَ بينه وبينها بدونِ عقلٍ أو ذكاءٍ ! .

وربما كانتِ النارُ أوّلَ كَشْفٍ عظيمٍ ظهر للإنسان . فنحن الآن نُشعلِ النارَ بالكبريت الذى هو شيءٌ جديدٌ مُسْتَحْدَثٌ . ولربما كانت النارُ فى الأيام الغابرةِ تشعلُ بِحَكِّ حجرين فيتولَّدُ منهما شرارةٌ تُشْعِلُ بعضاً من القَشِّ أو أىِّ شىءٍ آخر جافٍ قابلٍ للاشتعال . وقد تَحْدُثُ النارُ بنفسها أحياناً فى الغابات من احتكاك حجرين أو أىِّ شىءٍ آخرَ .

ولم تكن الحيواناتُ ذكيةً ذكاءً كافياً لتتعلمَ أىَّ شىء من هذا ، بعكس الإنسانِ الذى هداه ذكاؤُه إلى استعمال النار للاستدفاء بها فى الشتاء ، ولإرهاب أعدائه من الحيوانات الكبيرة حتى تظلَّ بعيدةً عنه . ولا بد أن الناسَ رجالاً ونساء

كانوا كلما رَأَوْا ناراً مُوَقَدَةً سَعَوْا إليها وعَمِلوا على إبقائها مشتعلةً بإلقاء أوراق جافة فيها ، خشيةَ أنْ تنطفىء . ولا بد أنهم قد كشفوا فيما بعد كيف يُوَلِّدُون شرارةً ويُشْعلون ناراً بِحَكِّ حجرين أحدِهما في الآخر .

ذلك كان بالنسبة إليهم كَشْفاً عظيما ، وقد أكسبهم نوعاً من القوة على الحيوانات وهكذا مهَّدَ الإنسانُ سبيلَه ومضى قُدُماً في طريقه نحوَ سيادةِ الدنيا .

الإنسان الأول

رأينا فى رسالتنا الأخيرة أن الذكاء هو الفارقُ الأساسىُّ بين الإنسان والحيوان . وهذا الذكاء جعله أمهرَ وأقوى من أضخم الحيوانات ، ولولاه لقضتِ الحيواناتُ عليه وأوْدَتْ به . وكلما ازداد الإنسانُ ذكاءً ازداد قوةً . ولم يكن لديه فى عهده الأول أسلحةٌ خاصّةٌ يُقاتِل بها أعداءه اللهم إلا الحجارةَ يَقْذِفُهُمْ بها . ثم بدأ يصنع من الحَجَرِ فئُوساً ورماحاً وأشياءَ كثيرةً كالإبر الحجرية الدقيقة . وقد رأينا كثيراً من هذه الأسلحةِ الحجريةِ فى متحف « ساويث كِنْزِ ينْجتُون » و « متحف جنيف » .

ثم انتهى ببطء العصرُ الحجرىُّ الذى حدثتكِ عنه قليلاً فى رسالتى السابقة ، كما اختفتْ جبالُ الجليد وأنهارُه من أوربا الوسطى وآسيا ، وعندما أصبح الجوُّ أدفأَ بدأ الإنسانُ ينتشر فى بقاع

الأرضِ المختلفةِ ، ولم يكن هناك وقتئذ منازلُ أو مَبانٍ أخرى ، وإنما كان الناسُ يعيشون فى كهوفٍ ومغارات . ولم يكن هناك زراعةٌ أو عملٌ فى الحقول، فالنَاسُ كانوا يأكلون من ثمارَ الأرض ونباتاتِها الفِطريةَ ومن الحيوانات التى كانوا يقتنصونها، ولم يكن لديهم خبزٌ أو أرزٌ لعدم زراعتهم أىَّ شىءٍ فى الحقول . كذلك لم يعرفوا طَهْوَ الطعام ولا أَوْعِيَتَهُ المختلفةَ ، ولكنْ ربما عرفوا شِوَاءَ اللحم على نيرانهم الكبيرة .

وهناك شىءٌ واحدٌ غريبٌ ؛ ذلك أن أولئك الرجالَ المتوحشين عَرَفوا كيف يَرسُمُون . وبطبيعة الحال لم يكن لديهم فى هذا الطور أوراقٌ أو أقلامٌ ، وإنما كان لديهم مِسَلاَّتُهم الحجريةُ وبعضُ أدواتٍ مُدَبَّبَةٍ نقشوا ورسموا بها حيواناتٍ على جدران الكهوف . وبعضُ رسومهم لا بأسَ بها مع سذاجتها ، ولكنَّ أغلبَها مناظرُ جانبيةٌ للوجوه . وأنتِ تعرفين أن هذا النوعَ من الرسم أسهلُ من غيره وأنَّ الأطفَالَ يَرسُمُون عادةً على هذا النحوِ . ولما كان من المحتمل أن الكهوفَ التى رسموا على جدرانها كانت مُظْلمةً ، فمن المحتمل أيضا أنهم استعملوا نوعاً من المصابيح الساذَجةِ .

هؤلاء الذين وصفناهم يسمون بأبناء العصر الحجرى القديم . ولقد سُمِّيَتْ هذه الفترةُ من التاريخ بالعصر الحجرى ، لأنَّ الناسَ فى أثنائها صنعوا كلَّ أدواتِهم من الحجر . ولم يَكُونوا قد عرفوا بعدُ كيف يستعملون المعادنَ .

أما فى عصرنا الحاضر فمعظمُ الأشياءِ التى تستعملينها مصنوعةٌ من المعادن ولاسيما الحديدِ . ولمَّا لم يكنِ الحديدُ أوالبرونزمعروفَيْن[1] حينئذ فإنهم استعملوا الحجَرَ الذى هو أصعبُ منهما فى صُنْعِ أدواتِهم وأسلحتِهم .

وقبلَ نهايةِ العصر الحجرى تغير المُنَاخُ وأصبح أكثَرَ دِفْئاً ، فذابَ الجليدُ وارتدَّ بعيداً حتى انحسر إلى محيط القطب الشمالى . وفى أواسط أسيا وأوربا ظهرتِ الغاباتُ الكبيرةُ . وبين هذه الغاباتِ نجد عُنْصُرًا جديدًا من الناس أمهرَ فى نواحٍ كثيرة من أبناء العصر الحجرى القديم ، وإنْ كان قد استمر يصنع أدواتِه من الحجَر . هذا العنصر الجديد وإن كان ينتمى إلى العصر الحجرى إلا أنه يَمُتُّ إلى آخر طور فيه .

ودراسة هؤلاء الناسِ تدل على أنَّ تقدماً كبيرا قد حدث لهم ، لأنّ ذكاءَ الإنسان من شأنه أن يجعلَه دائما متقدِما إلى الأمام

---

(١) مزيج من النحاس والقصدير بنسبة ٨ : ١

بالقياس إلى غيره من الحيوانات . فهؤلاء الذين عاشوا فى العصر الحجرى الحديث أُتيحَ لهم كشفُ الزراعةِ ، ذلك الكشفُ الذى يُعَدُّ من أعظمِ الكشوفِ التى حدثت فى تاريخ الإنسان. فقد بدأ الناسُ يعرفون لأول مرة كيفَ يفلَحون الأرضَ ويَحرُثونها ويزرعونها ويزرعونَ أنواعَ النبات التى يتخذون منها طعامَهم ، وذلك بالنسبة إليهم شىءٌ عظيمٌ وحَدثٌ تاريخىٌّ . فعن طريق الزراعة استطاعوا أن يَحصُلوا على طعامهم بسهولة أكثرَ من حصولهم عليه بصيد الحيوانات، الأمرُ الذى كان يستغرق كلَّ وقتهم . وتبعا لذلك أصبح لديهم كثيرٌ من وقت الفراغ ومن أوقات أخرى للراحة والتفكير . وكلما كَثر وقتُ فراغهم ازداد تقدُّمهم فى كشف أشياء جديدةٍ . فكشفوا مثلا صُنْعَ أوعيةِ الفَخّارِ ، وبمساعدتها بدءوا يَطْهُون طعامَهم . كذلك ارتقَوْا بِصُنْعِ الأدواتِ الحجرية حتى صارت صقيلةً جميلةً ، كما عرفوا كيف يستأنسون بعضَ الحيواناتِ كالبقرة والكلب والأغنام والماعز ، وكيف يَنْسِجُون أيضا .

وقد اعتادوا أن يعيشوا فى بيوت أو أكواخ ، وكثيرا ما اتُّخِذتْ هذه وَسَطَ بحيراتٍ خشيةَ هجومِ الأعداءِ أو الحيواناتِ

المتوحشةِ عليهم . ومَنْ أقاموا فى هذه البيوت أو الأكواخ كانوا يُسمَّوْن بِسُكّانِ البحيراتِ .

وقد تعجبين كيف نعرف كلَّ هذه الأشياء عن هؤلاء الناس ؟ حقيقة إنهم لم يُدَوِّنُوا كتبا نستقى منها كلَّ هذه المعلوماتِ ، ولكنى أخبرتك من قبل أن الكتابَ الذى يحدثنا بقصةِ هؤلاء هو «كتابُ الطبيعةِ الأكبر» ، وليستْ قراءةُ هذا الكتابِ بالأمرِ السهلِ لِمَا تتطلبه من صبر طويل . والواقع أنّ عدداً كبيرا من الناس قد قضَوْا كلّ حياتهم محاولين قراءة كتابِ الطبيعة ، وجَمْعَ عددٍ ضخم من بقايا الحيواناتِ الأولى وآثار العصور القديمة ، وهذه البقايا الباقية من الحيوانات الأولى والآثارِ القديمة التى عُثِر عليها موجودةٌ الآن فى متاحفِ العالَمِ الكبرى . فهناك نستطيع أن نرى الفئُوسَ الصقيلةَ الدقيقةَ ، والأوعيةَ ، والسهامَ والإبرَ الحجريةَ وغيرَها مما صنعه أولئك الذين عاشوا فى الطور الأخير من العصر الحجرى . لقد رأيتِ أنتِ نفسُك كثيرا من هذه الأشياء ، ومن الجائز أن تكونى قد نَسِيتِها . وإذا أُتيحتْ لك رُؤْيَتُها ثانية فسيكون فى إمكانك أن تفهميها أكثرَ من قبل .

وعلى ما أذكر يُوجَد فى متحف «جنيف» نموذجٌ حسنٌ جدا للبساكن التى أقامها سُكّانُ البحيرات ، وهى تتكون من أعمدة

خشبية ملتصقة وعليها تُوجَد مِنَصَّةٌ خشبيةٌ أقيمت عليها أكواخٌ من الخشب أيضا . وكلٌّ ذلك محمولٌ على سطح البحيرة وتصله بالأرض قنطرة صغيرة ساذجة .

وقد اتخذ أولئك الذين عاشوا فى الطور الأخير من العصر الحجرى ملابسَهم من جلود الحيوانات أو الكتانِ الخشنِ الذى تُصنَعُ منه الآن الأقمشةُ التيلية . وقد استمر أولئك فى تقدمهم فصنعوا أدواتٍ من النحاس الأحمرِ ، ومن البرونز الذى هو خليط من النحاس الأصفر والقصدير ، والذى هو أمتنُ وأصلبُ من كلا المعدنين . كذلك استعملوا الذهبَ وصنعوا منه أنواعا من الحُلِيِّ والزينةِ .

ولابد أنّ أولئك الناس قد عاشوا منذ حوالى ١٠,٠٠٠ سنة خلت . ونحن لانعرف بطبيعة الحال التواريخَ أو العصورَ على وجه التحديد ، وما ذكرناه عنها ليس إلا مجردَ حدْسٍ وتخمين .

ولعلكِ لاحظتِ أننا فى كل مامضى كنا نتحدث عن ملايينَ من السنين خلت وانقضت . وهانحن نقترب شيئا فشيئا من عصرنا الحاضر . ومنذُ رجل العصر الحجرى الحديث إلى رجل اليوم لا يُوجَد انقطاعٌ أو تغيُّرٌ مُفاجىءٌ ، بل تغيُّرٌ دائمٌ متصلٌ ،

ولهذا فالاختلاف بيننا الآن وبين رجل العصر الحجرى كبير جدا . والتغيُّراتُ التى طرأتْ على الإنسان فى مختلف عصوره قد تمتْ ببطء وتَدَرُّج جَرْياً على سُنَّةِ الطبيعةِ ونواميسِها بالنسبة لجميع الكائنات .

فمِن الإنسان تفرعت أجناسٌ مختلفة ، مضى كلٌّ جنس منها فى طريقه الخاص ، وعاش معيشتَه الخاصة . ثم لاننسى الجوَّ وتأثيرَه الدائمَ المتصلَ فى عمليةالتغيُّرِ التى طرأت على الإنسان . فالجوُّ ليس واحداً فى جميع أجزاء الأرض ، وإنما هو يختلف من قطْرٍ إلى آخر ، ولهذا اضطرتْ كلُّ جماعة من الناس إلى أن يُكَيِّفُوا أنفسَهم على حَسَبِ جَوِّ المكانِ الذى يُقيمون فيه . وسوف نتكلم عن ذلك بشىء من الإسهاب فيما بعدُ .

بَقِيَتْ نقطةٌ واحدةٌ أُريد أن أحدثكِ عنها اليوم . هذه النقطةُ هى أنّ كارثةً عظمى أصابت الإنسانَ قُبَيْلَ نهاية العصر الحجرى الحديث . لعلك تذكرين أنى عندما حدثتك عن العصر الحجرى أشرتُ إلى أن البحر الأبيض المتوسط لم يكن بحراً فى الأصل ، وإنما كان عبارةً عن عِدَّةِ بحيرات أقام عليها الإنسانُ أكواخه الخشبيةَ ، وقد حدث فجأة أن اكتُسِحَتِ الأرضُ

المجاورة لبوغاز جبلِ طارق بين إفريقية وأوربا ، ونتيجةً لذلك تدفقت مياه المحيط الأطلنطى فى وادى البحر الأبيض المتوسط المنخفض حتى غمرته ، ولا بُدَّ أنَّ عدداً كبيرا من الرجال والنساء ممن عاشوا على هذه البحيرات أو بالقرب منها قد غَرِقُوا لعدم استطاعتهم الفِرارَ والنجاةَ من تلك المياه التى فَجَأَتْهُمْ وغَشِيَتْهُمْ . وقد استمر المحيط الأطلنطى فى تدَفقه حتى ملأ ذلك الوادىَ المنخفض الكبير فكوّن بذلك ما يُسمَّى بالبحرِ الأبيضِ المتوسطِ .

لقد قَرأتِ ،وربما سمعتِ عن الطوفانِ الكبير الذى تُحدِّثنا التوراةُ عنه والذى تشير إليه بعضُ كتبنا السنسكريتية . وقد يكون من المحتمل أن هذا الطوفانَ الخطيرَ هو عملية مَلْءِ حوضِ البحرِ الأبيضِ المتوسِّط بمياه المحيط الأطلنطى على الصورة التى وصفتُها لكِ .

لا شك أن هذا الطوفانَ كان كارثةً عظمى . ولا بدَّ أنَّ أولئك الذين قُدِّرَتْ لهم النجاةُ منه — قِلَّةً كانوا أم كثرةً — قد حَدَّثُوا أطفالَهم عنه ، وأنّ أولئك الأطفال قد رَوَوْا قصتَه لأطفالهم أيضا . وهكذا ظلت قصة ذلك الطوفانِ العظيمِ يتناقلها الناسُ جيلاً بعدَ جيل .

كيف تكونت الأجناس المختلفة

درسنا في رسالتنا السابقة رجلَ العصرِ الحجرى الحديث الذى اعتاد أنْ يسكنَ فى أكواخ خشبية مُقامةٍ على البحيرات . ورأينا أنه تقدم تقدما كبيرا فى نواح كثيرة : فقد اكتشف الزراعةَ ، وعرف كيف يطهو طعامَه ، وكيف يُرَوِّضُ الحيواناتِ ويُسَخِّرها لخدمتِه . كلُّ ذلك كان منذُ آلافِ السنين .

ومن المحتمل أنَّ معظمَ أجناسِ البشر التى تعمرُ الأرضَ اليوم قد انحدرتْ من رجلِ العصرِ الحجرى الحديث . ونحن نرى الآن — كما تعلمين — الجنسَ الأبيضَ ، والجنسَ الأصفرَ ، والجنس الأسمرَ ، والجنس الأسود . وليس من السهل فى الحقيقة قصرُ الأجناس البشرية على هذه الأقسامِ الأربعةِ ، فقد اختلط بعضُها ببعض ، ولهذا يكون من الصعب أن نقولَ إلى أيِّ يَمُتُّ الكثيرُ منها . فعلماء الأجناس يستطيعون

أحياناً أنْ يُميِّزُوا بين سُلالةٍ وأخرى عن طريق قياسِ رءوسِ الناسِ. وهناك طرقٌ أُخرى لمعرفة السلالاتِ البشريةِ والتمييزِ بينهما .

ولكن كيف وُجِدتْ هذه الأجناسُ المختلفةُ ؟ وإذا كانت كلُّها قد انحدرت من رجل واحد ، فلماذا يختلف الآن بعضُها عن بعض كلَّ هذا الاختلاف ؟ وأنت تعلمين أن الرجلَ الألمانيَّ يختلف جدا عن الرجل الزنجى . فالأولُ أبيضُ اللونِ والثانى أسودُهُ ، وشَعْرُ الألمانىِّ طويلٌ ناعمٌ أصفرُ على حِين شَعْرُ الزنجىِّ قصيرٌ أجعدُ أسودُ . وإذا نظرتِ إلى الصينىِّ مثلا وجدتِه يختلف عن الألمانىِّ والزنجىِّ .

من الصعبِ إذنْ أن نقولَ كيف حدثتْ هذه الاختلافاتُ ، وإنْ كنا نعلم بعضَ أسبابِها ، لقد سبق أن أخبرتكِ كيف تغيرتِ الحيواناتُ بالتدرج تبعاً لتكييف أنفسِها للبيئات المختلفة التى تعيش فيها . ومن الجائز أنَّ الألمانىَّ والزنجىَّ قد تحدّرا من نوعين مختلفين من الناس ، ولكنَّ ذلك لا ينفى أنه كان لهما فى وقتٍ ما أصلٌ أو جَدٌّ واحدٌ .

وعلى ذلك فالاختلافاتُ هذه لا بُدَّ أنها قد حدثتْ عن

طريق عمليةِ تكييفها لأنفسِها تكييفاً يتمشى والبيئاتِ التى تعيش فيها ، ولعل بعضَهم كان أسرعَ تأثراً بالبيئة من الآخر ، شأنُهم فى ذلك شأنُ بعضِ الحيواناتِ .

ويترتب على ذلك أنَّ مَنْ يعيش فى بَرْدِ المنطقةِ الشماليةِ وجليدِها تنمو فيه قوةُ تَحَمُّلِ البَرْدِ . فالإسكيمو مثلا يعيشون حتى الآن فى منطقة القطب الشمالى الجليدية ويقوَوْن على تَحَمُّلِ البردِ القارسِ ، وقد يموتون إذا نُقِلوا فجأة إلى بلادٍ حارةٍ كبلادنا . ولانعزالهم عن بقية سكان العالَمِ ، واضطرارِهم إلى ذلك اللونِ من المعيشة العَسِرة الشاقةِ ، كانوا أقلَّ معرفةً وعِلْماً من سكانِ بقاعِ الأرضِ الأخرى .

وأهلُ إفريقيةَ أو مَن يعيشون منهم بالقرب من خط الاستواءِ الشديدِ الحرارةِ ألِفُوا هذه الحرارةَ واعتادوها ، ولذلك أحالتِ الشمسُ القاسية لونَ بَشْرَتِهم إلى السوادِ الذى نعرفهم به . ومن السهل تَصَوُّرُ ذلك وإدراكُه . فأنتِ تعلمين أنك لو بَقِيتِ طويلا فى الشمس على شاطىء البحر أو فى أى مكانٍ آخرَ فإنَّ الشمسَ تُلَوِّحُكِ وتُحِيلُ لونَ بشرتك إلى السُّمْرةِ ، وإذا كان ذلك يحدث لكِ بعدَ بضعةِ أسابيعَ تقضينها

على شاطىء البحر وتأخذين فيها حمّاما شمسيًّا ، فما بالك إذن بمَنْ يعيش دائما تحت أشعةِ الشمس المحرقةِ ؟ لا بد أنه يكون أكثرَ سمرةً .

وإذا كان بعض الناس يُقَدَّرُ عليهم أن يعيشوا لمئاتِ السنين فى بقاع وأقطار شديدةِ الحرارةِ ، فلا شك أن الآباءَ منهم وأطفالَهم وأحفادَهم ومَنْ يَليهم يَصِيرون على تعاقب الأجيالِ أشدَّ سُمْرَةً حتى يكون سوادُهم قاتمًا . هل تريدين مثلا آخر ؟ انظرى إلى فلاحينا فى الهندِ ، إنهم يعملون دائما فى الحقول تحت حرارةِ الشمس القاسيةِ ، وقد بلغ الفقرُ بهؤلاءِ أنَّ الواحدَ منهم قد لا يجدُ من الثياب غيرَ ما يستر به عورتَه ، ولما كان جسمُه مُعَرَّضًا للشمس على هذه الطريقة طوال يومِه ، بل طوال حياته فإنَّ لونَه استحالَ إلى السواد .

من كل ذلك ندرك أن اختلاف ألوانِ الناس إنما مَرَدُّهُ الجوُّ الذى يعيشون فيه ، وليس له علاقةٌ مطلقا بقيمةِ الإنسانِ أو خُلقِه أو جمالِه . فالرجلُ الأبيضُ إذا عاش طويلا فى قطر حارّ فإنَّ لونه يستحيل إلى السُّمْرَةِ ثم إلى السوادِ شيئا فشيئا ، اللهم إلا إذا تجنب الشمسَ والحرارةَ واستتر دائما بالظلال .

وأنتِ تعلمين أننا كشميريون، وأن أسلافَنا عاشوا فى كشمير منذ أكثر من مائتى سنة . لهذا تجدين أهلَ كشمير، حتى الفلاحين والعمالَ منهم ،من ذوى البَشَرَةِ البيضـــاءِ ، وذلك لأنَّ جوَّ كشميرَ باردٌ . فإذا نزح أولئك الكشميريون إلى بعضِ جهات الهندِ الأخرى الحارةِ فإنَّ لونَهم الأبيضَ لاشكَّ يتحول بعدَ بضعةِ أجيالٍ إلى السُّمْرَةِ .

فالجوُّ إذنْ هو السببُ الرئيسىُّ فى اختلاف ألوانِ الوجوهِ والأجسام . وقد يحدث أنَّ بعضَ مَنْ يعيشون فى أقطار حارةٍ لا يعملون فى الهواء الطلق ، وأنَّهم لثَرائِهم يُقيمون فى بيوت ويُعنَوْنَ بأنفسهم فيحافظون على لون بشرتهم . وقد تعيش أسرةٌ غنيةٌ هكذا لعدةِ جيالٍ فلا تتأثر كثيرا بالجو . ولكنَّ اعتمادَ الإنسانِ فى معيشتِه على عَمَلِ غيره دون أن يعملَ هو لنفسهِ ليس مما يَصحُّ الافتخارُ به !

وإنك لتجدين الناسَ عادةً فى شمال الهند ، فى كشميرَ والبَنجاب ، بِيضَ الوجوهِ والأجسامِ ، كما يأخـــذ لونُهم فى السمرة كلما انحدروا نحو الجنوب . وهم — كما رأيتِ — فى مَدْرَاسَ وسيلانَ يكادون أن يكونوا سُمْرًا تماما . . ستقولين

بطبيعة الحال إنّ ذلك راجعٌ إلى أثر الجوّ ؛ إذ كلما اتجهت إلى الجنوب اقتربتِ من خط الاستواء وأصبح الجوُّ أشدَّ حرارةً . ذلك حق ، وهو السبب الأصيل فى اختلاف اللونِ فى أجزاء الهندِ المتنوعةِ .

وعلى أيةِ حال فسنرى فيما بعدُ أنّ هذا الاختلافَ راجعٌ فى بعضه أيضا إلى نوع من الاختلاف فى الأجناس الأصليةِ الكثيرةِ التى وَفَدَتْ على الهند فى العصورِ الماضية واستوطنتها .

لقد ظلت هذه الأجناس متباعدةً منعزلةً ، ولكنها اضطرت فى النهاية إلى أن يخالط بعضُها بعضًا ، والنتيجةُ أنّ من الصعب الحكمَ بأنّ هنديًا بذاتِه ينتمى إلى هذا أو ذاك من الأجناسِ .

الرسالة التاسعة

أجناس الجنس البشرى ولغاته

لا نستطيع أن نقول على وجه التحديد فى أى جزء من أجزاء الدنيا وُجِدَ الإنسانُ الأولُ . ربما وُجِدَ الناسُ فى أجزاءٍ كثيرةٍ من الأرض فى وقت واحد تقريبا . ومن المحتمل أنَّ الإنسانَ بدأ يستوطن المناطقَ الحارةَ أو الدافئةَ ويعيش فيها حينما أخذتِ الأنهارُ الجليديةُ الكبرى فى العصر الجليدى تذوب وترتدُّ صوبَ الشمال .

ومن الجائزِ حينما ذاب الجليدُ أنه كان هناك سهولٌ فسيحةُ الأرجاءِ على صورةٍ تُشبهُ سهولَ سيبريا الشمالية وهضابَها فى عصرنا الحاضر . ولابد أن هذه استحالت إلى أرض مُعْشِبَةٍ كان الإنسانُ يَجُول دائما فيها باحثا عن العُشْبِ لماشيته . وهؤلاء الناسُ ممن لم يكن لهم مكانٌ ثابتٌ يعيشون فيه كانوا يُسَمَّوْنَ

« الجماعاتِ الرُّحل » . وإنه ليوجد إلى اليوم فى الهند وفى كثير من الأقطار الأخرى بقايا من هذه الجماعاتِ الرّحّل، كالغجر مثلا .

ولا بد أنّ الناسَ قد استقروا بالقرب من الأنهار الكبيرةِ . فقد كانت الأرضُ المجاورةُ للأنهار خصبةً جدا وصالحةً للزراعة . لقد كانت المياهُ وقتئذ غزيرةً ، كما كان من السهل زراعةُ المحصولاتِ الغذائية على الأرض . من أجل ذلك نظن أنَّ الناسَ استقروا فى أولِ الأمرِ على مَقْرُبَةٍ من الأنهار الكبيرة مثلِ نَهر السِّند « Indus » والكنج فى الهند ، ودجلةَ والفراتِ فى العراق، والنيلِ فى مصر ، والنهرِ الأصفرِ فى الصين .

وأقدمُ جنسٍ ظهر فى الهند وعرفنا عنه شيئا هو الجنس الدّرافيدىُّ . وقد تلاه — كما سنعرف فيما بعد — الجنسُ الآرىُّ ثم المغولىُّ فى الشرق . وأكثرُ سكان جنوبِ الهند قد تحدّرُوا من الدرافيديين . وهؤلاء لونُهم أشدُّ سُمرةً من لونِ هنودِ الشمالِ، وربما كان ذلك لأنهم استوطنوا الهندَ قبلَهم بزمن طويل . وقد كان الدرافيديون على درجة كبيرة من التقدم، وكانت لهم لغاتُهم الخاصة واتّصالاتُهم بغيرهم عن طريق كثير من الأعمالِ والمصالحِ .

في هذه العصور الأولى كان هناك في آسيا الوسطى وآسيا الغربية وشرقِ أوربا جنسٌ ينمو ويأخذ طريقَه إلى الوجود . ذلك هو الجنس الآريُّ . وقد وردت لفظة « آريّ » في اللغة السنسكريتية بمعنى « رجلٍ شريفٍ أو نبيلِ المَحْتِدِ » . ولما كانت اللغة السنسكريتية إحدى لغاتِ الآريين كان معنى ذلك أنهم اعتبروا أنفسَهم على درجة عاليةٍ من النبالةِ وشرفِ الأصلِ . وواضحٌ أنّ زَهْوَهُمْ وإعجابَهم بأنفسِهم لم يكن أقلّ مما يدعيه أبناء عصرِنا منهم .

وأنتِ تعرفين أن الإنجليزيّ يظن نفسَه الرجلَ الأفضلَ على سطح الكرة الأرضية . وأنّ الفرنسيّ يعتقد أنّ الفرنسيين أعظمُ الناسِ ، وهكذا نظرة الألمانِ والأمريكيين وغيرِهم إلى أنفسِهم .

وهؤلاء الآريون هاموا على وجوههم وهاجروا إلى آسيا الشمالية وأوربا حيث المراعي الواسعةُ والأراضي المُعشِبَة الشاسعة. وكلما ازداد عددُهم وأصبح الجوُّ أجفَّ والأرضُ أقلّ عشبا قَلّ تبعا لذلك الطعامُ الضروريُّ لغذائهم . لهذا اضطروا للهجرةِ والارتحال لبقاع أخرى من الأرض طلبا للقوت . ومِن ثَمّ انتشروا في

أنحاء أوربا وأتَوْا إلى الهندِ وإيران وبلادِ ما بين النهرين .وهكذا نجد أن كلَّ سكانِ هذه البقاع على شدة اختلافهم وتباينهم قد تَحَدَّرُوا حقيقةً من جنس واحد ، هو الجنسُ الآريُّ . وذلك يرجع بطبيعة الحال إلى قرون بعيدة . ومنذ ذلك التاريخ حدثتْ تطوراتٌ وتغيراتٌ كثيرة ، واختلطتِ الأجناسُ بعضُها ببعض إلى درجةٍ كبيرةٍ . فالآريون إذنْ جنسٌ واحدٌ كبيرٌ من أجناس الناس التى تعيش فى الدنيا حتى يومِنا هذا .

والمغولُ جنسٌ آخرُ كبيرٌ انتشروا فى آسيا الشرقيةِ وعلى التحديد فى الصينِ واليابانِ والتُّبَّتِ وسَيَامَ وبُورْمَا . وهؤلاء يُسَمَّوْنَ أحيانا بالجنسِ الأصفرِ ، ومن الممكن تمييزُهم عادةً بعِظَامِ خدودِهم العاليةِ وضيقِ أعينِهم .

والزنوجُ هم أهلُ إفريقيةَ وبعضِ الجهاتِ التى تشبهها . وهؤلاء ليسوا بآريِّين أو مغوليين ، وأوضحُ مايميزهم هو لونُهم الأسودُ . أما العربُ واليهودُ فينتمون إلى جنسٍ يخالف الأجناسَ السابقةَ .

كل هذهِ الأجناس قد انقسمت بمرور آلاف السنين إلى سلالاتٍ صغيرةٍ كثيرةٍ اختلط بعضُها ببعض ولا ضرورةَ إلى أن نَشْغَلَ أنفسَنا بها .

ولعلَّ أهمَّ طريقة للتمييز بين الأجناس المختلفة هى دراسة لغاتِهم . فلكلِّ جنسٍ فى الأصلِ لغةٌ مستقلةٌ ، ولكنْ على توالى الأيامِ تَوَلَّدَتْ من كلِّ لغةٍ لغاتٌ كثيرةٌ . فجميعُ اللغاتِ التى يتكلمها الناسُ هى فروعٌ لشجرةٍ واحدةٍ وتنتمى إلى أسرةٍ واحدةٍ ، هى لغةُ الإنسانِ الأولِ ، ومن السهلِ علينا أن نجدَ كلماتٍ مشتركةً فيها وأنْ نَرَى الصلةَ بين هذه اللغاتِ المختلفةِ .

وحينما انتشر الآريون فى آسيا وأوروبا لم يستطيعوا أن يَبْقَوْا متصلين بعضُهم ببعض ، إذ لم يكن حينذاكَ طرقٌ حديدية أو تلغرافٌ أو بريدٌ أو كتبٌ . لذلك بَدَأَتْ كلُّ مجموعةٍ من الآريين تتكلم لغةً واحدةً بطريقتِها الخاصةِ ، وبعدَ حِقْبَةٍ من الزمنِ أصبحتْ هذه اللغةُ أو تلك مختلفةً تمامًا عن اللغة الأصلية وعن أبناء عمومتها من اللغاتِ المستعملةِ فى الأقطار الآريةِ الأخرى . ولهذا السبب نرى الآن لغاتٍ كثيرةً فى الدنيا .

على أيةِ حالٍ سنجد عند دراستِنا لهذه اللغاتِ الكثيرةِ أنها فروعٌ لعددٍ قليل من اللغات الأصلية الأولى . فعلى سبيل المثال نرى أنَّ الآريين فى حيثما ارتحلوا وحلوا تَمُتُّ لغتُهم إلى

الأُسرةِ الآرية . كذلك نرى أن اللغةَ السنسكريتيةَ ، واللاتينيةَ ، واليونانيةَ ، والإنجليزيةَ ، والفرنسيةَ ، والألمانيةَ ، والإيطاليةَ ، وبعضَ اللغاتِ الأخرى كلُّها أبناءُ عُمومةٍ وتنتمى إلى الأسرة الآريةِ . وكثيرٌ من لغاتنا فى الهندِ ، كاللغة الأُرديةِ والهنديةِ والبنغاليةِ ، والماراثيةِ ، والجوجاراتية ليست إلا فروعا من السنسكريتية التى تنتسب إلى الأُسرة الآرية . والصينيةُ أُسْرَةُ لغةٍ كبيرة أُخرى تفرّعتْ عنها لغةُ أهل الصين ، ولغةُ أهل بورما ، ولغةُ أهل التُّبَّت ، ولغـةُ أهل سَيَام . وهناك مجموعةٌ ثالثة هى مجموعة اللغات الساميةِ تفرعت عنها العَربيةُ والعبريةُ .

وبعضُ اللغات كالتركيةِ واليابانيةِ لا تنتمى إلى أىٍّ من هذه الثلاثِ الأصليةِ . وبعضُ لغات جنوبِ الهند كلغة « التاميل » و « التيلوجو » و « مالايالام » و « كاناريس » لا تَمتُّ إلى هذه اللغات الأصلية . إن هذه اللغـات الأربع هى من الأسرة « الدرافيديةِ » وهى قديمةٌ جدا .

الرسالة العاشرة

علاقات اللغات

رأينا مما سبق كيف أنّ الآريين انتشروا في أقطار كثيرة، ورأينا كيف حملوا لغتهم أيّا كانت هذه اللغةُ إلى أيّ مكان نزحوا إليه واستوطنوه.

ولكنّ الأجواء والظروفَ المختلفةَ قد ولّدتْ اختلافاتٍ كثيرةً في جماعات الآريين المتنوعة: فكلُّ جماعةٍ منهم مضتْ في سبيل التطورِ والتغيرِ بوسائلِها وأساليبها الخاصة مُكوِّنَةً لها في جميع مراحلِ تطورِها عاداتٍ وتقاليدَ جديدةً. ولم يكن في وُسْعِ أيّ جماعةٍ من هؤلاء أنْ تَلْتَقِيَ بغيرها من الجماعات في أقطار أخرى لصعوبةِ السفرِ والانتقالِ من مكان إلى آخرَ في تلك العصورِ القديمةِ. لذلك كانت كلُّ جماعةٍ منعزلةً وبعيدةً عن الجماعات الأخرى. ومِنْ ثَمَّ إذا افترضنا أنّ أهلَ قُطرٍ ما قد تعلموا

أو كشفوا شيئا جديدا فإنه كان من الصعب عليهم أن يَنقُلوا هذه المعرفة الجديدةَ إلى سكان الأقطارِ المجاورةِ أو يُحيطوهم عِلماً بها. وهكذا بدأتِ التغيراتُ والفوارقُ تظهر ، وأخذتِ الأسرةُ الآريّةُ بعدَ بضعةِ أجيالٍ تتشعب إلى فروع كثيرة . ولربما نَسُوا أنهم جميعا ينتمون إلى أسرة واحدة كبيرة . كذلك أخذتْ لغتُهم الأصلية الواحدةُ تنقسم إلى عِدَّةِ لغاتٍ تختلف كلُّ لغةٍ منها عن الأخرى اختلافاً بَيِّناً .

ومع ما يبدو من اختلافات واضحة بين هذه اللغات المتنوعة وبين اللغة الأصلية التى تفرعت عنها فإنَّ فيها كثيراً من أوجه الشَّبَهِ والألفاظِ المشتركةِ . وحتى الآن وبعدَ آلافِ السنين نستطيع أن نجدَ هذه الألفاظَ المشتركةَ فى لغات مختلفةٍ، كما نستطيع أن نقول إنَّ هذه اللغاتِ كانت يوماً ما لغةً واحدةً .

وأنتِ تعرفين أن هناك ألفاظاً كثيرةً مُشتركةً بين اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وعلى سبيل المثال دعينا ننظر فى لفظتين شائعتين سهلتين هما لفظة «أب» «father» ولفظ «أم» «mother» فهاتان اللفظتان فى اللغة الهندية والسنسكريتية كما تعرفين هما

وفى « mater » ، و « pater» هما « mata وفى اللغة اللاتينية Pità و
اليونانية «pater» و «meter » ، وفى الألمانية« vater »و « mutter »؛
وفى الفرنسية « pere » و « mere » ، وهكذا فى اللغاتِ الأخرى
الكثيرةِ .

والآن ألاَ تبدو لفظتا « أبٍ » و « أمٍّ » قريبتى الشبهِ فى جميع
اللغات التى ذكرتُها هنا ؟ بلى ، يوجد فى هاتين اللفظتين فى كل
اللغات التى أوردتها قَدْرٌ مُشترَكٌ من مَشابهِ وملامحِ الأسرةِ
الواحدةِ ، كما هو الحال مع أبناءِ الأعمام .

وعمليةُ الاستعارة مِن لغة إلى أخرى أمرٌ طبيعيٌّ . ولهذا
فلا تكاد تخلو لغةٌ من ألفاظ كثيرة استعارتها من لغاتٍ أخرى .
فاللغةُ الهنديةُ مثلا قد استعارت ألفاظاً شَتَّى من اللغة الإنجليزية
عن طريق الاختلاطِ والاتصالِ ، كما استعارتِ الإنجليزيةُ بعضَ
الألفاظِ من الهندية .

وليس من الممكن أن تكون لفظتا « أبٍ وأمٍّ » من الألفاظ
المستعارة ، لأنهما لفظتان غيرُ حديثتين . ذلك أنَّ الناسَ عندما
بدءوا يتكلمون فى أول الأمر كان هناك آباءٌ وأمهاتٌ ، ولا بُدَّ

أنّ ألفاظاً قد وُجدَتْ للدّلالة عليهما . ومِنْ ثمّ نستطيع القولَ بأنَّ هاتين اللفظتين غيرُ مستعارتين ، ولابد أنهما قد وصلتا إلينا من أصل واحد أو أسْرة واحدة . مِن ذلك كلِّه نستطيع أنْ نستدلّ على أنَّ الناسَ الذين يعيشون الآن فى بقاعٍ وأقطارٍ شتى ويستعملون لغاتٍ مختلفةً لا بُدَّ أنهم كانوا ذاتَ مرةٍ ينتمون إلى نفسِ الأسرةِ الكبيرةِ .

ولعلك تَرَيْنَ بعدَ ذلك كم تكون دراسةَ اللغات ومقارنتُها شائقةً نافعةً، وإلى أىّ حَدٍّ نتعلم منها . فإذا عرفنا ثلاثَ لغاتٍ أو أربعاً فإنه لا يكون من الصعب جدا تعلّمُ لغاتٍ أكثرَ .

ولعلك تَرَيْنَ أيضا أن أكثرَ الناس ما بمن يعيشون فى أقطار مختلفة وتفصلهم عن بعضهم بعضا أبعادٌ شاسعةٌ كانوا منذ عصور بعيدة شَعْباً واحداً وجنساً واحداً . ومنذُ ذلك التاريخ مررنا بأطوار متعددةٍ من التطور والتغير ، وكثيرون منا قد نَسُوا العلاقاتِ والصِّلاتِ القديمةَ التى تجمع بيننا . والعجيبُ بعد ذلك أنَّ الناسَ فى كل قطر من الأقطار يتخيلون أنفسَهم أحسنَ الناس وأمهرَهم وأنّ غيرَهم ليسوا شيئاً بالقياس إليهم . فالإنجليزى مَثَلاً يظن أنه خيرُ الناسِ وأن قُطْرَه خيرُ الأقطار . والفَرَنْسِىُّ فخورٌ جدا

بفرنسا وبكل ماهو فرنسي . والألمان والطليان يظنون الا حدود لأوطانهم . وكثيرٌ من الهنود يتخيلون أن الهند أعظمُ بلادِ العالَمِ من نواحٍ كثيرة . كلُّ ذلك غرورٌ مَصْدَرُهُ أنَّ كلَّ واحدٍ يظن خيرا بنفسه وبوطنه فقط . والواقعُ أَنَّ لكل إنسان، مهما كان أصله وعنصره، نواحيَه القويةَ ونواحيه الضعيفةَ ، كما أن فيه بواعثَ الخير ونوازعَ الشرِّ . وبهذه النظرةِ لا يُوجَدُ في العالَمِ قُطْرٌ واحدٌ مُبَرَّأً ـ ولو نسبيا ـ من الشر والنقص . فعلينا إذنْ أن نأخذ بالخير حيثما وجدناه وأن نحاول إزالةَ الشر حيثما كان .

ونحنُ بطبيعةِ الحال أكثرُ اهتماما بالهند ، وطننا نحن ، ومن سوء الحظ أنه اليوم في حال سيئةٍ [1] يُرْثَى لها ، وأكثرُ مواطنينا قد بلغ بهم الفقرُ والبؤسُ إلى حدٍّ كبيرٍ . وحياتُهم تخلو من كل مظاهرِ البهجةِ والأنسِ والسرورِ . فمِنْ حقهم علينا أن نبحثَ كيف نستطيع أن نُسعِدَهم وأن نعيدَ الأمل إلى نفوسهم وأن نُدخِلَ الفرحةَ على قلوبهم . علينا أن نَرَى كلَّ ما هو خيرٌ

(١) كتبت هذه الرسائل منذ ثمان وعشرين سنة عندما كانت الهند لا تزال تحت الاحتلال البريطاني . أما اليوم فقد استقلت الهند تماما وتقدمت كثيرا بفضل وطنية أبنائها وزعمائها .

من عاداتنا وتقاليدنا فنحاولَ الابقاء عليه ، وأن نرى كلّ ما هو شرٌ أو فاسدٌ منها فَنَنْبُذَه ونُلْقِيَ به بعيدا . وإذا وجـدنا شيئاً حسنا لدى الشعوب الأخرى فعلينا ألا نترددَ في اقتباسه والأخذِ به ، ونحن كهنود علينا أن نعيشَ في الهند وأن نعملَ وندأبَ من أجل الهند .

على أنَّ ذلك يجب ألاّ يُنسِيَنا أننا نَمُتُّ بالقرابةِ والنسبِ إلى أسرة العالَم الكبرى، وأنَّ مَنْ يعيشون من الناس في الأقطار الأخرى ليسوا إلا أبناء عمومتِنا وخئولتِنا . وإنَّه لأمرٌ عظيم أن يعيشَ كلُّ سكان المعمورة سعداء قانعين . إذا وَعَيْنَا كلَّ ذلك كان علينا أنْ نعملَ على جَعْلِ الأرض كلِّها أسعدَ مكان يعيشُ فيه الإنسان .

الرسالة الحادية عشرة

ما هى المدنية ؟

سأحاولُ فى هذه الرسالةِ أنْ أحدثَكِ قليلا عن المدنيات الأولى . ولكنْ قبلَ ذلك دَعِينَا نَتَفَهَّمُ مَعْنَى « المدنيَّةِ » .

فإذا بحثتِ فى أحدِ معاجِمِ اللغةِ عن لفظةِ « المدنية » هذه وجدتِ أنَّ الفعل الذى اشتُقَّتْ منه هو « مَدَّنَ » بمعنى « حَسَّنَ » أو « هَذَّبَ » أو « استبدل بعاداتٍ وحشيةٍ وهمجيةٍ عاداتٍ أخرى حسنةً لا أثرَ للوحشيةِ أو الهمجية فيها » ، كما يشير الفعل « مَدَّنَ » إشارة خاصة إلى المجتمع أو إلى جماعةٍ من الناس .

فحالةُ الهمجيةِ التى غلبتْ على الناس حينما كانوا أشبه بالوحوش فى تصرفاتهم تُسَمَّى بحالةِ « الْبَرْبَرِيَّةِ » . وبقدر ماتبتعدُ عن البربرية نقترب من المدنية .

ولكنْ كيف نستطيع الحكمَ على شخصٍ أو جماعةٍ بالبربرية

أو التمدن ؟ كثيرون من أهل أوربا يظنون أنهم متمدينون جدا ، وأنَّ أهلَ آسيا متوحشون تماما . أيكونُ هذا الظنُّ أو الوهمُ لأنَّ الأوربيين يرتدون ثيابا أكثر من الآسيويين والإفريقيين؟ ولكنَّ كثرةَ الثيابِ أو قِلَّتَها أو الزيَّ بمعنًى عام أمرٌ يرجع إلى الجوِّ ويعتمد عليه . فمَنْ يعيشون فى جَوٍّ باردٍ يكونون أحوجَ إلى مَزيدٍ من الثيابِ ممن يعيشون فى جوٍّ حار .

أم يكون هذا الظنُّ أو الوهمُ لأنَّ الذى يَملك البندقيةَ أو المِدفَع أقوى من الرجلِ الأعزلِ الذى لا يملك سلاحاً ، ولهذا فهو أكثرُ تمديناً منه ؟ على أيةِ حالٍ سواء أكان الرجلُ الضعيفُ متمديناً أم غيرَ متمدين فليست لديه من الجرأةِ والشجاعةِ ما يجعله يقول شيئا كهذا للرجلِ القويِّ مخافةَ أن يُودِيَ القويُّ بحياتِه .

وأنتِ تعلمين أنه منذ سنوات قليلة فقط كانت هناك حربٌ[1] عظمى اشترك فيها معظمُ دولِ العالم . وكانت كلُّ دولةٍ منهمكةً فى قتلِ أكبر عددٍ ممكن من أبناء الدول المعادية لها . فالإنجليزُ كانوا يَبذلون قصارَى جهدِهم فى قتل الألمان ، كما كان حال الألمان كذلك

(١) يشير إلى الحرب العالمية الأولى . فقد بدأ فى كتابة هذه الرسائل سنة ١٩٢٨

مع الإنجليز . لقد قتلَ ملايينُ من البشر فى هذه الحرب ، كما شُوِّهت فيها آلافٌ وآلافٌ ، وخرجوا منها بعاهاتٍ تلازمهم مدى الحياةِ . فنهم مَن فقد نُورَ عينيه فصار أعمى ، ومنهم مَن فقد ذراعيه أو ساقيه فأمسى عاجزاً كسيحا . ولا بد أنك قد رأيت كثيرين مِن مُشَوَّهى هذه الحرب وجرحاها فى فرنسا وغيرها . وفى باريس تُوجَد مقاعدُ خاصة لهؤلاء الضحايا فى قطارات « المترو » التى تسير تحت سطح الارض . وبعدُ ، فهل تظنين أنه مِن المدنية أو مِن العقلِ فى شىء أن يقتلَ الناسُ بعضُهم بعضا على مثل هذه الصورة ؟ حينما يتقاتل اثنان فى الطريق فإنَّ الشرطىَّ يُفَرِّقهما ولا يَسْلَمان مِن لَوْمِ المَارَّةِ لهما ورميهما بالحماقةِ . وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لرجلين يقتتلان فى الطريق ، فماذا يكون الأمرُ عندما تلجأ الدولُ الكبرى إلى الحربِ وقتلِ بعضِهم بعضَا بالآلاف والملايين ؟ لاشك أنها تكون أشدَّ من هذين الرجلين المتقاتلين فى الطريق حماقةً وجنونًا . وما أشبه الدولَ التى تتحاربُ وتتناحرُ على هذا النحو برجلين متوحشين يتقاتلان فى الغابات ! وإذا كان المتوحشون يُرْمَوْنَ بالبربرية أفلا تكونُ الدولُ التى تتصرف تصرفهم أشدَّ بَرْبَرِيَّةً ؟

وهكذا إذا نظرت إلى الموضوع من هذه الزاوية فإنك ستنتهين

— بلا شك — إلى القول بأنَّ الدولَ التى حاربت وقتلت الملايين من الأرواح فى الحرب الكبرى كانجلترا وألمانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرِها ليستْ متمدينةً إطلاقا . ومع ذلك فأنتِ تعرفين أنَّ فى حياةِ هذه الدولِ الكثيرَ مما هو جديرٌ بالاقتداء والاقتباس، وأنَّ كثيرين من أهلها جديرون بالتقدير والإعجاب .

بعدَ كل ذلك ستقولين — وأنت على حق فيما تقولين — إنه ليس من السهل أن نَفْهَمَ أو نُحدِّدَ « المدنية »، وأنا معك فى أنَّ تحديدَ معنى « المدنية » أمرٌ صعبٌ جدا . ولعلّ أقصى ما يمكن أن نقولَه فى هذا الباب هو أنّ المبانىَ العظيمةَ والصورَ الفنيةَ الرائعةَ والكتبَ وكلَّ ما هو جميلٌ ليست فى الواقع إلا بعضَ مظاهرِ المدنية . ولعلّ خيرَ مظاهرِ المدنيةِ هو الإنسانُ العظيمُ المُبَرَّأُ من الأثرةِ والأنانيةِ والذى يعملُ مع الغيرِ لخيرِ المجموع . ولا شك أنَّ مَنْ يعملُ مع المجموعِ أفضلُ مِمن يعملُ بِمُفْرَدِه ، ومَن يعملُ للخيرِ العام هو أفضلُ الجميعِ على الإطلاقِ .

الرسالة الثانية عشرة

تكون القبائل

لقد أخبرتُكِ في رسائلي السابقة كيف كان الإنسانُ الأولُ أشبهَ بالحيوانِ حينما ظهر على الأرض . ولكن الإنسانَ نَمَا وتطورَ تطوراً بطيئاً على تعاقب الأجيال والقرون حتى أصبح أرقى مما كان عليه أولا . ولابد أنه كان في بادىء الأمر يعيش على ما يقتنصه بنفسِه كما تفعل بعضُ الحيواناتِ المفترسة اليوم . ثم في مرحلةٍ أخرى مِن تطوره وجد أنَّ من الحكمة والحماية والأمن لنفسه أن يسيرَ وينتقلَ من مكان لآخر مع غيره في جماعاتٍ كالقُطْعَانِ . فإذا ظل كثيرون من هؤلاء في جماعة معا فإنهم يصيرون أقوى وأقدرَ على الدفاعِ عن أنفسِهم ضِدَّ هجماتِ الحيواناتِ المفترسةِ ، وربما ضِدَّ هجماتِ جماعةٍ أخرى من الناس . وليس ذلك مقصوراً على الإنسانِ وحدَه وإنما هو ينطبق على

الحيوانات كذلك ، فهى تسيرُ وتنتقلُ من مكان إلى آخر فى قطعان اتقاءً للخطرِ وطلباً للسلامة . فالأغنامُ والماعزُ والغزلانُ وحتى الأفيالُ تسير وتتحرك فى قطعان . وعند ما تنام هذه القطعانُ فإنَّ بعضَها يبقى يَقِظاً يَحرُسُ نفسَه وغيرَه .

وربما قرأتَ قصصَ قُطعانِ الذئاب أيضاً : ففى الشتاء فى روسيا تخرج هذه الذئابُ فى قطعانٍ وعندما تشعر بالجوع ـ وكثيراً ما تشعرُ به فى الشتاء ـ فإنها تَهجُم على الإنسان ، وقلما يهاجم ذئبٌ واحدٌ رجلا واحداً والذى يحدث أنَّ جماعةً منها تأنسُ فى نفسها القدرةَ على مهاجمةِ نفرٍ من الرجال فتفعلُ فيُضطر الرجالُ حينئذ إلى الفِرار والهَرَبِ نجاةً بحياتهم ، وكثيرا ما يكون هناك سباقٌ بين الذئاب والرجال وهم فى «زلاقاتهم» التى يسيرون بها على الجليد .

ولهذا كانت أولُ خطوة خطاها الإنسانُ الأولُ نحو المدنيّة هى اختلاطُه بغيره من بنى جنسه واجتماعُهم معاً فى جماعاتٍ وطوائفَ عُرِفَتْ وسُمِّيَتْ فيما بعدُ بالقبائل . ثم بدءوا يشتغلون ويعملون معاً ، فكان هناك ما يُسَمّى بالتعاون . واضطر كلُّ رجل أن يفكرَ فى القبيلة أولاً ثم فى نفسِه ثانيا ، فإذا كانتِ القبيلةُ فى خَطَرٍ فكلُّ عضوٍ فيها مُضطر إلى أن يقاتِلَ من أجلها وأن يدافعَ عنها .

وكانت عقوبةَ العُضْوِ الذى لا يعملُ للقبيلة هى الطردُ منها . ومادام الناسُ قد وصلوا - كما تَرَيْنَ - إلى حدٍّ أن يعملوا مجتمعِينَ ، فلا بُدَّ أن يعملوا فى نظام . ولو أنَّ كُلَّ واحدٍ منهم عمِل مايريد كما يريد مابقى كثيرون فى القبيلة . ومحافظةً على نظامِ العمل وكِيانِ القبيلةِ كان لابد لشخصٍ أوعضوٍ فيها أن يُصبحَ شيخَها أو زعيمَها . ولا عجبَ فى ذلك فحتّى قطعانُ السائمةِ والحيواناتِ لها زعماؤها .

وقد جرت العادة أن تختارَ كلُّ قبيلةٍ من القبائل أقوى رجلٍ فيها زعيماً لها ، وأن تَكِلَ إليه أمرَ حمايتها والدفاعِ عنها فى حالة قيام حرب بينها وبين بعضِ القبائلِ الأخرى ، أما إذا نَشَبَ قتالٌ بين أفراد القبيلة الواحدةِ فسُرعانَ ما تَضعُفُ وتنقسم على نفسِها ؛ ولهذا كان يعمل زعيمُ القبيلة على منع كلِّ قتالٍ يحدث فى داخلِها وبين أفرادِها .

وبطبيعةِ الحالِ كان فى استطاعة أىِّ قبيلةٍ أن تحاربَ قبيلةً أخرى . وقد حدث ذلك فعلا ، وكان طوراً جديدا من أطوار الحرب تَلاَ الطورَ الذى كان فيه كلُّ شخصٍ يحارب مِن أجلِ نفسِه .

ولا بُدّ أنّ القبائلَ الأولى كانت فى حقيقةِ الأمر أسَرًا كبيرةً تجمع بين أفرادِها صلةُ القرابةِ . ثم أخذتْ هذه الأسرُ تنمو وتتكاثر على مَرّ السنين حتى أصبحت كلُّ أسرةٍ منها قبيلةً كبيرةً . ولا بد أنّ الحياةَ بالنسبة للإنسان الأولِ كانت حياةً شاقةً ، ولا سيما قَبْلَ تَكَوُّنِ القبائِلِ . فلم يكنْ له منزلٌ يَأْوِى إليه ، أو ثيابٌ بالصورة المألوفةِ لنا الآنِ تقيه الحرَّ والبردَ ، اللهم إلاّ بعضَ جلودِ الحيواناتِ ، ولابد أنه كان على الدوام فى حرب وقتال . وقدِ اضْطُرَّ مِن أجل الحصولِ على قُوتهِ وطعامهِ اليومىِّ أن يصيدَ الحيواناتِ ويقتلَها وأن يجمعَ الفاكهةَ والثمار الفطريةَ .

ولا بد أنه قد شعر بأن له أعداءً فى كل مكان . حتى الطبيعةَ لا بد قد بدتْ له كعدوٍّ من أعدائه حينما كانت تُمطرُه بوابلٍ من البَرَدِ والثلج وتفاجئه بالزلازل . لم يكن الإنسانُ فى هذا الطَور من التاريخ غيرَ مخلوقٍ صغيرٍ بائسٍ يدبُّ على سطح الأرض والخوفُ يملؤه من كل شىء لعدمِ قدرتهِ على فهمِ أىِّ شىءٍ . فعندما ينزل البَرَد كان يَظنُّ أنَّ إلهـاً ما فى السحاب يحاول أن يؤذيَه بإلقاء البَرَد عليه . ولهذا يعتريه الخوفُ فيَهُمُّ بأن يفعلَ

شيئاً ، أيَّ شيءٍ ، ليُرضِيَ هذا الشخصَ الذى فى السحاب والذى يُلقى عليه بالبَرَدِ والمطر والثلج .

ولكن كيف يُرضيه ؟ لابد أنَّ الإنسانَ الأولَ — والذى كان ذكاؤه وقتذاك محدوداً جدا — ظن أن الإله الذى فى السحاب كان شخصاً مثلَه ، ولذلك فهو يحب الطعامَ . فإرضاءً له كان الإنسانُ الأولُ يأخذُ شيئاً من اللحم أو يقتلُ حيوانا ويتركه للإله فى مكان ما لِيَتغذَّى به ، مُتخَيِّلاً أنه يستطيع بذلك أن يُرضِيَه ، فلا يَرْمِيَه بالبَرَدِ والثلجِ .

قد يبدو لنا هذا الآن جهلا وسذاجةً لعلمنا بسبب نزولِ المطرِ والبَرَدِ والثلجِ الذى لا علاقة له بقتل الحيوان .

ولكن بقدر ما يبدو فى ذلك العمل من الجهل والسذاجة فإنه لا يزال يوجد حتى اليومِ فى بعض بقاعِ الأرض جماعاتٌ كثيرةٌ من الناس بلغ بها جهلُها وسذاجتُها أن تفعل أموراً شبيهةً بذلك .

بَدْءُ الدين وتقسيم العمل

أخبرتك فى رسالتى السابقة كيف كان الإنسانُ الأولُ يخاف كلَّ شىء، وكيف كان بخياله المحدودِ القاصرِ يعزو وقوعَ الكوارثِ والمصائبِ إلى غضبِ الآلهة أو غَيْرَتِها .

ولقد رأى الإنسانُ الأولُ هذه الآلهةَ المتخيَّلةَ فى كل مكان . رآها فى الغابات والجبال والأنهار والسحاب . ولم يكن ينظر إلى الإله على أنه شخص خيِّرٌ عطوفٌ، ولكنْ على أنه شخصٌ حادُّ الطبعِ سريعُ الانفعالِ والغضبِ . ولما كان خائفا دائما من غضبه فإنه كان يحاول أن يَرْشُوَهُ بتقديم القرابين إليه ولا سيما من الطعام . وإذا ألمَّتْ به أو بأبناء جنسه أحيانا كارثةٌ كالزلزالِ أو الفيضانِ أو الطاعونِ وراحَ ضحيةً لها كثيرون من الناس، فسرعان ما يَعتريه رُعْبٌ فظيعٌ ويظن أنَّ الآلهةَ غاضبون عليه . ولكى يُرْضِيَهم ويَسرَّهم

كان يُضَحِّى بكل شىء حتى بالرجالِ والنساءِ وحتى بأطفالِه هو فيُقَدِّمُهم قرابين لهم . قد يبدو ذلك عملاً فظيعاً ولكنّ الرجلَ الخائفَ لاَ يتَورَّعُ عن إتيانِ أىِّ شىءٍ يرى أنّ فيه أمنَه وسلامتَه .

ولا بد أن ذلك كان بدايةَ الدِّين . فالدِّين قد ظهر إذن فى أول أمره كنوع من الخوف ، وكلُّ شىء عُمِلَ بباعث الخوفِ فإنه ليس خيرًا محضاً . والدين — كما تعرفين — يخبرنا عن أشياء كثيرةٍ جميلةٍ . وعندما تكبُرين ستتاح لك فرصةُ القراءة عن الأديان التى يعتنقها الناس وعما فيها من مبادئْ إنسانية سامية ومن أشياء أخرى ضارةٍ ، كالبدَع والخُرافات ، أضيفت إليها وليست من الأديان فى شىء .

والمهم على أية حال هنا هو أن ننظر كيف بدأت فكرة الدِّين ، وإنْ كنا سنرى فيما بعدُ كيف تطورت هذه الفكرةُ وارتقت . ولكنْ مهما ارتقت فكرةُ الدِّينِ فإننا نرى الناسَ لا يزالون حتى اليوم يقتل بعضُهم بعضا باسم الدِّين . كذلك لا يزال كثيرون من الناس ينظرون للدِّين على أنه شىءٌ يُخْشَى ويُرْهَب . ومن ثَمَّ يَقضُون وقتَهم محاولين إرضاء بعض

كائناتٍ خيالية بأن يُقَدّموا لهـا فى معابدها الهدايا والقرابينَ من الحيوانات .

وهكذا كانت حياةُ الإنسانِ البدائى حياةً شاقةً ، فقد كان عليه أن يحصل على قُوتِه يوماً بيوم وإلاَّ عَرَّضَ نفسه للمَوْتِ جُوعاً .

لم يكن إذنْ فى وُسْعِ أىِّ رجلٍ كسلانَ أن يعيشَ فى تلك الأيام غيرَ معتمدٍ على نفسهِ وجهودهِ . كذلك كان مستحيلاً على أىِّ إنسانٍ أن يَحْصُلَ بالعمل على كمياتٍ من الطعام مَرَّةً واحدة ثم لا يعمل شيئا لفترةٍ من الزمن .

وحينما تكوَّنتِ القبيلةُ أصبح ذلك أيسرَ قليلاً على الإنسان . فقد صار فى إمكانِ أفرادِ القبيلة أن يعملوا مجتمعين وأن يَحْصُلوا على كميات من الطعام أكثرَ مما كان يَحْصُل عليه الأفرادُ متفرقين . ولا يَخْفَى عليكِ أن العملَ الجماعىَّ أو ما يُسَمَّى الآن بالتعاون يساعدنا على تحقيق أشياء كثيرةٍ لا يَتَسَنَّى للفردِ الواحدِ منا أن يعملها ، فشخصٌ أو شخصانِ قد لا يستطيعان رَفْعَ حِمْلٍ ثقيلٍ ، ولكنَّ عـدةَ أشخاصٍ

متعاونين يستطيعون أن يرفعوا هذا الحِمْلَ الثقيلَ بسهولة .

وقد حدثتكِ من قبلُ عن تقدمٍ آخرَ هامٍّ تَمَّ فى تلك العصور البعيدة . ذلك التقدمُ هو كَشْفُ الزراعةِ . وقد يشوقكِ أن تعرفى أن أوّلياتِ الزراعةِ اهتدى إليها بعضُ النّمال . ولستُ أعنى بهذا القول أنّ النمالَ تَبذُرُ البذور وتَحْرُثُ الأرضَ ثم تجنى حَصَادَها ، وإنْ كان ما تعمله هو شىءٌ شبيه بذلك . فإذا وَجدَتْ هذه النمالُ إحدى الشجيرات التى تأكلُ بذورَها فإنها تَنْزِعْ من حولها الحشائشَ بعناية وبهذا تعطى للشجيرة فرصة عظيمة لِتنموَ وتحيا . ومن الجائزِ أنّ الناسَ أيضا عَمِلُوا فى وقتٍ ما عملَ هذه النمالِ . على أنّ الناسَ لم تفهمْ وقتئذٍ فكرةَ الزراعةِ ، ولا بُدَّ أنّ عصوراً كثيرةً قد مَرّتْ عليهم حتى فهموها وبدءوا يزرعون ويَغرِسون البذورَ .

فمعرفةُ الإنسانِ للزراعة سهّلتْ عليه كثيراً عمليةَ الحصولِ على طعامه ، كما أعفته من مَشَقّةِ قضاء كلِّ وقته مُتصيداً ؛ ومِنْ ثَمّ استطاع أن يحيا حياةً أقلَّ مَشقةٍ .

ثم حدثَ تغيُّرٌ هام . فقَبْلَ الزراعةِ كان كلُّ إنسانٍ صيّادًا ، وكان الصيد عَمَلَهُ الوحيدَ للإبقاء على حياته . ومن المحتمل أنّ عملَ النساءِ كان مقصورا على رعايةِ الأطفال وجمعِ الفاكهة والثمار .

وقد ترتّبَ على معرفةِ الزراعةِ وجودُ أنواعٍ مختلفة من العمل . فالرجالُ كانوا يشتغلون فى الحقول وبالصيد . ومنهم من اشتغل بنوعٍ أو بآخرَ من العمل . ومن المحتمل أنّ النساء قد شُغِلن برعاية الحيوانات وحَلْبِ البقر .

وعلى توالى الأجيال والعصور زادتِ الأعمالُ وتنوعت حتى لتجدين الآن كلَّ إنسان فى الدنيا يُزاول نوعا خاصا من العمل . فهذا طبيب يعالج المرضى وذاك مهندسٌ يَبنى القناطرَ ويُنشِئ الطرقَ ، وآخر نجارٌ أو حدادٌ أو بنّاءٌ أو إسكافٌ أو خياطٌ وهكذا .

فكلُّ رجلٍ له حرفتُه الخاصةُ ولا عِلْمَ له بحِرَفِ الآخرين . وهذا ما يسمى بتقسيم العمل أو تقسيم العمال . ومما لاشك فيه أنّ التخصصَ خيرٌ من التوزُّع . فإذا حاول

إنسانٌ ما أنْ يعملَ عملاً واحدا مُتقَناً فإنه يكون أحسنَ بكثير عما لو حاول هوِ نفسُه أن يعملَ أشياء متعددة .

ونحن نرى أنّ تقسيمَ العملِ هذا قد ظهر ببطء فى القبائلِ القديمةِ حينما بدأتِ الزراعةِ . وعلى توالى العصور والأجيال تَشَعَّبَ العملُ وتنوعَ .

الرسالة الرابعة عشرة

التغيرات التى مهدت لها الزراعة

فى الرسائل الماضية حدثتُك قليلاً عن تقسيم العملِ . ففى بادئ الأمرِ حينما اعتاد الإنسانُ أن يعيشَ على الصيد فقط كان هناك نوعٌ محدودٌ جدا من تقسيم العمل .

ولا بد أنَّ تقسيمَ العمل أو العمال قد بدأَ بين الرجالِ والنساءِ ، فالرجالُ للصيدِ والقنَص ؛ والنساء للمنزلِ لرعايةِ الأطفالِ والحيواناتِ الأليفة .

وعند ما عَرَفَ الناسُ الزراعةَ حدثت تطوراتٌ كثيرةٌ جديدة . حدث أولا تقسيمٌ كبيرٌ فى مجال العملِ . فمن الناسِ مَن احترفوا الصيدَ ، ومنهم من احترفوا زراعةَ الأرض وحرثَها أو العملَ فى الحقولِ بصفةٍ عامة . وعلى توالى السنين أخذ الناسُ فى تعلُّمِ مِهَنٍ وحِرَفٍ جديدةٍ .

ثم حدث تَطَوُّرٌ آخرَ هامٌ نتيجةً للاشتغال بفلاحة الأرض وزرعها ، ذلك أن الناس بدءوا يستوطنون القرى والمدن ويستقرون فيها . أمّا قبلَ معرفةِ الزراعة والاشتغال بها فكان نشاطُهم مقصورًا على الْجَوَلاَنِ والتَّنَقُّلِ باحثِين عن طعامهم وقوتِهم ، ولِقُدْرَتِهِمْ على الصيدِ فى كل مكان يرحلون إليه لم يكن ضروريا لهم أن يُقيموا فى مكان واحد .

وكثيرا ما كانت حيواناتُهم من بقرٍ وغنمٍ وغيرِها حافِزًا لهم على الارتحالِ والانتقال من مكان إلى مكان . فهذه الحيوانات كانت تتطلب منابتَ العُشْب والكَلَأْ مَرْعًى لها . فإذا أتتْ على العُشبِ والكلأ فى مكانٍ ما ولم يَعُدْ فيه غذاءٌ كافٍ لها ، لم يكنْ فى وُسْعِ القبيلةِ إلا أن ترتحلَ بحيواناتها إلى مكانٍ آخرَ يكثُر فيه العشبُ والكلأُ ويطيبُ فيه المرعى .

وعند ما بدأت الزراعةُ اضطر الناسُ إلى الإقامة بالقربِ من الأرض ، إذ لم يكنْ من المعقولِ أن يرحلوا عن الأرض التى حرثوها وزرعوها ؛ ومِنْ ثَمَّ استقروا بعدَ ارتحال وبدأتِ القُرَى والمدنُ تظهرُ وتنمو . . .

وهناك تطورٌ كبيرٌ آخرُ نشأ عن معرفةِ الزراعة

والاشتغال بها . ذلك هو أن الزراعةَ جعلتْ حياةَ الإنسانِ أيسرَ مما كانت عليه قبل . لقد أصبح حصولُ الإنسانِ على طعامه عن طريق الزراعة أسهلَ بكثير من حصوله عليه عن طريق الصيدِ وقضاءِ كلِّ وقته فيه . ثم بدأتِ الأرض تُغِلُّ من المحصولات الغذائيةِ أكثر مما يستهلكه الإنسانُ فى غذائه .

والآن دعينا ننظر فى تطور هام .

فحينما كان الإنسانُ يعيش على الصيد لم يكن فى مقدوره أن يختزن شيئا من صيدِ يومِه لغدِه . وإذا كان ذلك فى مقدوره فلم يكنِ المُخْتَزَنُ إلا شيئاً قليلاً جدا . لقد كان مضطرًّا أن يعيشَ كما يقول المثل « من اليد إلى الفم » . فلم يكن هناك مصارفُ ماليةٌ « بنوك » لِيُودِعَ فيها مالَه أو غيرَه مِن مُقْتَنَياتِه . ولهذا كان مضطرا إلى أن يكْسِبَ قوتَه يوماً بيوم عن طريق الصيدِ والقنَصِ . وبظهور الزراعةِ واشتغاله بِهَا بدأت الأرضُ تُعطيه من المحصولات الزراعيةِ فى وقتٍ واحد أكثرَ من حاجته ؛ ومِن ثَمَّ بدأ يختزن الزائدَ عنها . وقد تَمَّ للناس هذا لسببٍ بسيطٍ ، هو أنهم أنتجوا أكثرَ قليلاً مما كان يلزمَ لِغذائهم .

وأنتِ تعرفين أن لدينا الآن مصارفَ ماليةً « بنوك » يُودِع الناسُ فيها أموالَهم ثم يسحبونها عند ما تدعو الحاجةُ بواسطة صُكُوكٍ وحوالات مالية « شيكات » . فمِن أين تأتى لهم هذهِ الأموالُ ؟

إذا فكرتِ قليلاً عرفت أن كلّ هذه الأموال هى شىءٌ زائدٌ على حاجة أصحابها . وأنهم لا يريدون إنفاقَها كلَّها مرةً واحدةً ، ولهذا يُودِعونها فى المصارفِ الماليةِ « البنوك » . والأغنياءُ اليومَ هم الذين لديهم الكثيرُ من هذه الأموالِ الزائدةِ ، والفقراءُ هم الذين لا مالَ عندَهم مطلقا .

وسوف تعرفين فيما بعدُ كيف أتتْ هذه الأموالُ الزائدةُ . وعلى أيةِ حالٍ فليس السببُ هو أن شخصاً مايشتغلُ أكثر من الآخر . فالمُشَاهَدُ الآن هو أنَّ شخصاً لا يعمل ولا يشتغل مطلقا يحصلُ على المالِ أو الثروةِ الزائدة ، على حينِ أنَّ العاملَ الكادحَ لا يَحْصُلُ إلاَّ على القليلِ منه فى أغلبِ الأحيان . ولا شك أن هذا يبدو تنظيماً مُخْتَلاًّ لا عقلَ فيه .

وكثيرٌ من الناس يظنون أن كثرةَ الفقراءِ فى الدنيا ترجع إلى هذا التنظيم الذى لا إنصافَ فيه . قد يبدو أن هذا أمرٌ

يصعبُ فهمُه عليكِ الآن . فإذا كان كذلك فلا تَشْغلي نفسَك به ، و سوف يُتاحُ لكِ في المستقبل فهمُه فهماً كافياً .

والذى أوَدُّ لك أن تعرفيه حاليا هو أنّ الزراعــة قد أَدّتْ إلى إنتاجِ موادَّ غِذائيةٍ أكثرَ مما يحتاجُ إليه الزُّرّاعُ ، وأنَّ الزائدَ على الحاجة من هذا الإنتاج قد اختُزِن ، وأنه لم يكن فى تلك العصور القديمةِ مصارفُ ماليةٌ « بنوك » أو نقودٌ . والأغنياء فى العصر الذى نتحدث عنه هم الذين كان لديهم كثيرٌ من البقرِ والغنمِ والجمالِ والحبوبِ .

البطريق — كيف بدأ ؟

أشعر بأن رسائلى إليكِ قد بدأتْ تَصعُبُ وتتعَقَّدُ قليلا . وعُذرِى فى ذلك هو أن الحياةَ التى نراها حولنا هى فى حدِّ ذاتِها مُعقَّدَةٌ جدا .

ففى عصور الإنسان الأولى كانت الحياةُ أبسطَ وأيسرَ ، أما الآن فنحن نتكلم عن العصر الذى بدأتْ فيه الحياةُ تنتقل لأول مرة من حالة البساطة إلى حالة التعقيد .

فإذا تابعنا البحثَ ببطء ، وإذا حاولنا أن نَتفهَّمَ حقيقةَ التغيراتِ التى طرأتْ على الحياةِ والجماعةِ منذ حدوثِها فإن ذلك سوف يفسر لنا أشياءَ كثيرةً مما نراه فى عصرنا ويساعدنا على فهمها . وبدون هذه المحاولة لن نكونَ قادرِين على فهمِ كلِّ

ما هو جار وواقعٌ حولَنا ؛ سنكون كالأطفال الذين ضلّوا وتاهُوا في غابةٍ مظلمةٍ . من أجل هذا السبب أحاولُ أن أرجعَ بكِ إلى الوراء ، إلى حافّةِ الغابة ، فلعلنا نجدُ لنا طريقاً خلالَها .

لَعلك لازلت تذكرين أنكِ سألتنى مرة ونحن فى « مَسُورِى » عن الملوك، وعما كانوا عليهِ فى أول الأمر ولماذا أصبحوا ملوكا . ولكى نعرف الآن شيئا عن ذلك علينا أن نَمُدَّ بصرَنا وننطلقَ بخيالنا إلى الوراء ؛ إلى تلك الأيام البعيدة التى بدأ الملوك يظهرون فيها على مسرح الحياة .

وأولُ ما نراهُ هو أنهم لم يكونوا يُسَمَّوْنَ بالملوك فى بادئ الأمرِ . فما أصلُهم إذن ؟ وكيف انتهى بهم الأمرُ إلى أن يُعرَفوا بالملوك ؟

لقد حدثتك من قبلُ عن نشأة القبائل ، كما حدثتك أيضا كيف أن ظهورَ الزراعة استدعى نوعا من تقسيم العمل والعمال . ومِن ثَمّ أصبح حَتْمًا أن يُوكَلَ إلى شخص ما فى القبيلة أمرُ تنظيمِ العملِ الذى يقوم به أفرادُها . وحتى قبلَ هذا لقد كانتِ القبيلة بحاجة إلى مَن يقودها فى المعركة ضِدَّ قبيلةٍ أخرى . وكان

القائدُ عادةً أسنَّ رجل فى الجماعةِ أو القبيلةِ . وقد كان يسمى ؛ أو بمعنى آخر نسميه نحن الآن « البِطريق » أى القائدَ أو الزعيمَ .

ولما كان « البِطريقُ » هو الأكبرَ سِنًّا فقد كان مفروضا أن يكون هو الأكثرَ تجربةً ومعرفةً .

ولم يكن هذا « البطريقُ » مختلفا كثيراً عن بقيَّةِ أفراد القبيلة . فقد كان يشتغل مع الآخرين ، وكلُّ ما أنتجتْهُ الأرضُ من طعام كان يُقَسَّمُ بين أفرادِ القبيلةِ .

لقد كان كلُّ شيءٍ مِلْكًا للقبيلةِ ، ولم يكن الحالُ كما هو الآن حيث يكون لكلِّ إنسانٍ بيتُه الخاصُّ وممتلكاتُه الأخرى الخاصَّة . كان كلُّ ما يكسبه أىُّ فردٍ فى القبيلة يُقسَّم بين جميعِ أفرادِها ، قَلَّ ذلك الكَسْبُ أو كَثُرَ ، وذلك لاعتبارهِ حقًّا ومِلْكا للقبيلةِ جمعاء . وكان الذى يقوم بعملية التقسيم هذه هو « البِطريقُ » أو مُنَظِّمُ القبيلةِ .

ثم أخذتِ الأمورُ تتطور تطورا بطيئا بسببِ ظهورِ أنواعٍ جديدةٍ من العمل متصلةٍ بالزراعة . وقد اضطرَّ « البِطريقُ » تبعاً

لذلك التطورِ أن يقضىَ معظمَ وقتِهِ فى التنظيمِ وملاحظةِ أن يقومَ كلُّ فردٍ فى القبيلة بعمله خيرَ قيامٍ .

وشيئا فشيئا أخذ « البطريق » يتخلَّى عن مُباشرةِ أىِّ عملٍ من الأعمالِ العاديةِ التى كان يُشاركُ فيها كسائرِ أفرادِ القبيلة .

وهكذا نرى الآن نوعاً آخرَ من تقسيم العمل أو العمال . « فالبطريقُ » أصبح عَمَلُه مقصوراً على التنظيمِ وعلى إصدارِ الأوامر . أما أفرادُ القبيلة الآخرون فقد كان عليهم أن يعملوا فى الحقول والصيدِ والخروج إلى الحرب والقتال وإطاعةِ أوامرِ قائدِهم أو زعيمهم « البطريق » .

فإذا نشَبتْ حربٌ أو قتال بين قبيلتين فإن « البِطريق » يُصبِح أكثرَ قوةً ، إذْ لا يتسنى للمُجنَّدين من القبيلة أنْ يقاتلوا قتالا حسنا فى وقت الحرب بدون قائدٍ؛ ومِن ثَمّ أصبح « البطريقُ » شخصاً قويًّا جدا .

ولما ازدادتْ عمليةُ التنظيمِ وتشعَّبتْ لم يَعُدِ « البِطريقُ » قادراً على مباشرتها كلِّها بنفسِه ، فكان من الطبيعى أن يختارَ بعضَ أفرادِ القبيلةِ لمعاونتِه ومساعدتِه .

وعلى ذلك فبعد أن كان للقبيلةِ مُنَظِّمٌ واحدٌ صار لها منظمون كثيرون ، وإنْ كان « البِطريق » قد ظل بطبيعة الحال الزعيمَ والرئيسَ .

وهكذا نرى القبيلةَ قد انقسمت إلى مُنَظِّمِينَ وعُمَّالٍ عاديين . ونتيجةً لهذا التقسيم لم يَعُدِ الرجالُ متساوين تقريبا . فبعضُهم أصبحوا منظِّمِين ، لهم السلطةُ والرئاسةُ على غيرهم ، والبعضُ الآخر ظلوا كما هم عُمَّالاً .

وسوف نرى فى رسالتنا القادمة كيف تطور « البِطريقُ » .

البطريق – كيف تطور

لعلكِ لم تجدي وصفي للقبائلِ القديمة وزعمائِها البطارقةِ ثقيلَ الفهم غيرَ شائق .

لقد عرفتِ من رسالتي السابقة أن كلَّ شيء في العصورِ القديمة كان مِلْكاً مُشتَرَكاً للقبيلةِ كلِّها ولم يكنْ للفردِ فيها مُنفرداً مِلْكيَّةٌ خاصةٌ به .

وذلك النظامُ كان مُطَبَّقاً حتى على « البطريقِ » ذاتِه فلم يكن له شيءٌ خاصٌّ به . فهو كعُضو في القبيلة كان له فقط حصةٌ مساويةٌ لحصة أيِّ عضوٍ آخرَ فيها . ولكنه كان مُنظِّمَ شئونِ القبيلةِ ، كما كان مفروضا فيه أن يحافظَ على ممتلكاتها ويرعاها .

ولما زادتْ سلطتُه بدأ يرى أنّ هذه الممتلكاتِ التي يحافظُ

عليها ويرعاها هى مِلكه الخاصُّ وليستْ مِلْكاً للقبيلة . وبعبارة أخرى بدأ يرى أنه مادام هو زعيمَ القبيلةِ ، فهو إذن ممثلها. ومن هنا نرى كيف بدأتْ فِكْرَةُ المِلْكِيّةِ واقتناءِ الإنسانِ لأشياء يَخُصُّ بها نفسَه .

واليوم نحن نفكر ونتكلم دائما عن كون هذا الشىء أو ذاك ملكى أو ملكك . ولكنَّ رجالَ القبائلِ الأولى ونساءها ، كما حدثتكِ من قبلُ ، لم يفكروا على هذا النحو ، فقد كان كلُّ شىء حينئذ مِلْكاً للقبيلةِ .

ومهما يكن من أمر فقد بدأ « البِطريقُ » القديمُ يظن أنه هو القبيلةُ ، وعلى هذا بدأ ينظر إلى معظمِ الأشياء التى تَخُصُّها على أنها مِلْكِيّتُه الخاصّةُ .

وعندَ وفاةِ « البِطريقِ » كان يجتمع كلُّ أفرادِ القبيلة ويختارون مِن بينهم زعيماً أو « بِطريقا » آخرَ ، ولكنَّ أسرَةَ « البطريقِ » كانت فى العادة أكثرَ معرفةً وخِبرةً مِن غيرها بتصريفِ شئونِ القبيلةِ وتنظيمِ أحوالها وذلك بحكمِ قربهم من « البِطريقِ » ومعاونتِهم إيّاهُ فى عملِه .

ولهذا جرت العادةُ عند وفاة البِطريق أن يَختار أفرادُ القبيلةِ مِن أسرتهِ مَن يخلُفُه ويُصبحُ « بِطريقاً » عليهم .

ومن ذلك نرى أنّ أسرَة « البِطريق » صارت متميزةً عن بقية أُسَرِ القبيلةِ، وأنّ القبيلةَ لذلك استَنّتْ عادةَ اختيار رؤسائها مِن بين أفرادِ أسرتهِ .

و« البِطريقُ » فى ذاك العهد كان يتمتع بسُلطةٍ كبيرة . وطبيعى أنّ كلّ « بِطريق » كان يهمه أن يَخْلُفَه ابنُـه أو أخوه فى منصبه كبِطريق ليضمَن استمرارَ السلطةِ والرئاسةِ فى بيته أو أسرته ، ومِنْ ثم كان يَبذُل قُصارَى جُهدِه ، ويسعى لتحقيق ذلك بطرق شتى . فهو يُعَلِّم ابنَـه أو أخاه أو أحدَ أقاربه، ويُعِدُّه إعْدَادا خاصًّا يُؤَهِّلُه فى المستقبل لتولِّى السلطةِ والقيامِ بمهامها مِن بَعدِه . وهو قد يتجاوز حدودَ سلطتِه فيُعَيِّنُ مَن يَخلُفه فى رئاسة القبيلة دون أن يستشيرَها مُكتفياً بمجردِ الإعلام .

كان يكفى أن يقولَ إنه اختار فلانا أو فلانا، وإنه علّمه ودرّبه على الرئاسةِ والحكمِ ،فيُصبِحَ مِن بعدِه رئيسَ القبيلةِ أو بطريقَها .

ومن الجائز أنّ أفرادَ القبيلةِ فى أولّ الأمر لم يرتاحوا إلى أن يُؤمَروا بهذه الطريقةِ وأن يُفرَض عليهم رئيسُهم فرضا هكذا دون سابق استشارتهم . ولكنْ سُرعان ما اعتادوا ذلك وأَلِفوا أن يَفعلُوا دائماً كلّ ما يريدُ « البِطريق » منهم أن يفعلوه .

لم يكن هناك إذن انتخابٌ أو اختيارٌ للبِطريق الجديد ، ذلك لأن « البِطريقَ » القديمَ قد سَلَبَ القبيلةَ هذا الحقّ وخَصّ به نفسَه . فاختيارُ مَن يَخلُفه أصبح أمراً يُقرِّرهُ هو ولا أحدَ غيرُه .

ومِن ذلك تَرَيْنَ أنّ وظيفَة « البِطريق » أصبحتْ وراثيّةً . وبعبارة أخرى أصبحتْ وَقْفاً على أسرةِ البِطريق تنتقل من الأبِ إلى ابنهِ أو إلى أحدِ أقاربهِ .

وعندما تطورتْ فكرةُ السلطةِ والرئاسةِ إلى هذا الحد أصبح « البِطريقُ » متأكّداً تمام التأكدمن أنّ كلّ ما تملكهالقبيلةُ هو فى الحقيقة مِلْكه هو فِى حياته ثم تَئُولُ مِلْكِيَّتُه إلى أسرتهبعد وفاته .

وهذا يُرينا كيف بدأت فكرةُ المِلْكية ، أعنى فكرةَ هذا « لى » أو « لك » أو « ملكى » أو « ملكك » . ولم تكن فكرةُ المِلْكيةِ هذه موجودةً مِن قبلُ ، فكلّ الأفراد كانوا يشتغلون

معا للقبيلة لا لأنفسهم ؛ فإذا أنتجوا كمّياتٍ وافرةً من الطعام أو المواد الأخرى فإنّ كلّ فردٍ فى القبيلة يَحْصُلُ على حصته منها . ونتيجةً لذلك لم يكن فى القبيلة أغنياء وفقراء ، وإنما كان كلّ أعضائها مشتركين فى ثروتها ومِلْكيتها . ولم يَكَدِ « البِطرِيقُ » يَخُصّ نفسَه بأشياءِ القبيلةِ وَيدّعِى مِلْكِيّتَها لنفسِه حتى بدأنا نَرَى بين الناس الأغنياءَ والفقراءَ .

فإلى الرسالة القادمة حيث أحدثكِ فى شىء من التفصيل عن هذا الموضوع .

الرسالة السابعة عشرة

البطريق يصبح الملك

إن « البطريق » القديم أخذ جزءا كبيرا من وقتنا . أليس كذلك ؟

على أية حال إننا سننتهى منه قريبا ، أو بعبارة أخرى إننا سنراه يتخذ لنفسه اسماً جديدا .

لقد وعدت من قبل أن أخبرك كيف ظهر الملوك وماذا كانوا فى بادئ الأمر . ولكى نفهم قصة الملوك علينا أن نرجع إلى الوراء . . . إلى عصور البطارقة . ولا بد أنك قد قدرت وأدركت أن هؤلاء البطارقة أصبحوا فيما بعد ملوكا ؛ أو « راجا »[1] و « مهراجا[2] » .

(١) ملك لمملكة صغيرة .
(٢) ملك لمملكة كبيرة .

ولفظة « البطريق » مشتقة من اللفظة اللاتينية « باتر » Pater أو « أب » وذلك يَعْنِي أنه كان أباً لقبيلته أو قائداً لها .

ولفظـــةُ « باتريا » Patria التي تَعْنِي « أرضَ الآباءِ والأجـدادِ » أو « الوطنَ » مُشتقةٌ من اللفظةِ اللاتينيةِ نفسِها . وأنتِ تعرفين أنها في الفرنسية باترى Patrie . ونحن في اللغة السنسكريتيةِ والهنديةِ نفكر في الوطن على أنه الأمُّ أو أرضُ الأمِّ ،فأيُّهما تفضلين ؟

وعندما أصبحتْ وظيفة « البِطريق » وِراثيّةً يخلُفه فيها ابنُـه أو أحدُ أقاربه لم يكنْ هناك اختلافٌ كبيرٌ بينه وبين الملك ، لأنه قد تطوّر إلى «مَلِكٍ» . ثم نبتتْ لدَى الملكِ هذه الفكرةُ الغريبةُ ، فكرةُ أنَّ كلَّ ما في الوطن مِلْكُهُ وأنّـه هو الوطنُ . وقد أُثِرَ عن أحدِ ملوكِ فرنسا المشهورين أنه قال : « أنا الدولةُ » أو « الدولة هي أنا » (L'état c'est moi).ونَسِيَ الملوكُ أن اختيارَ الناسِ لهم كان في الأصل على أساس أن يُنَظِّموا ويوزعوا الطعامَ وسائرَ ماتُغِلُّه الدولةُ ومُمْتَلَكاتُها بين أبنائها .

أجل ، لقد نسُوا أنهم اختيروا ،لا لسبب أكثرَ من أنه كان

مفروضا فيهم أن يكونوا أمهرَ وأكثرَ أفرادِ القبيلةِ أو الوطن خبْرةً . لقد تخيَّلوا أنهم السَّادَة وأنَّ كلَّ مَنْ عداهُمْ مِن أبناء الوطنِ خدَمٌ لهم ، مع أنهم كانوا فى الحقيقةِ وواقع الأمرِ خُدَّامَ الوطن .

وسوف ترَيْن فيما بعد، حينما تطالعين التاريخ ، أن الملوكَ على تعاقب العصور أصبحوا مغرورين متكبرين لدرجةِ أنهم كانوا يعتقدون ألاَّ علاقة لشعوبهم بانتخابهم وأن اللهَ قد خلقهم ملوكا . وقد سمّوا ذلك « الحقَّ الإلهىَّ للملوكِ » .

وعندما فرضوا لأنفسهم مثلَ هذه الحقوقِ التى لم تُخوِّلْهم إياها شعوبُهم ، أخذوا منذ قرون طويلة يُسيئون التصرفَ ويَعيشون فى بذخٍ وترفٍ وعظمةٍ ، على حين تعيش شعوبُهم على حالٍ يُرثَى لها من الجوعِ والفقرِ والبؤس . ولكنَّ الشعوبَ فى مجموعها لم تَعُدْ تستطيعُ أن تتحملَ ذلك : ومِنْ ثمَّ ثارَ بعضُها على ملوكِهم فقتلوهم أو طردُوهم .

وحينما تكبُرين ستقرئين كثيراً عن ذلك . ستقرئين مثلا كيفَ ثارَ الإنجليزُ على مَلِكِهم شارل الأول وهزموه وقتلوه وكيف

أنَّ فرنسا ثارتْ ثورتَها الكبرى فطوَّحتْ بمَلِكِها وألغتْ نظام المَلَكيَّةِ . ولعلك تذكرين أننا زرنا سجن كونسيرجيري Conciergerie في باريس . هل كنتِ معنا ؟ لقد احْتُفِظَ في هذا السجنِ بأعضاءِ أسرةِ المَلِك وبزوجتِه ماري أنطوانيت وغيرِهم .

ولعلكِ قرأتِ أيضا عن الثورةِ الروسيةِ الكبرى التي قامت منذ سنوات والتي طَرَدَ فيها الروسُ مَلِكَهم الذي كان يُسَمَّى القَيْصَرَ .

من كل ذلك تَرَيْنَ أنَّ الملوكَ قد استنفدوا زمَنهم وعصرَهم . ومعظمُ الدولِ الآن لا ملوكَ لها . ففرنسا وألمانيا وروسيا وسويسرا والولايات المتحدة الأمريكية والصين ودول أخرى كثيرةٌ لا ملوكَ لها .

لقد تحوَّلَتْ كلُّ هذه الدولِ إلى جمهوريات يكون الشعبُ فيها ، لا المَلِكُ ، مصدرَ السلطات . فالحُكَّامُ في أيةِ جمهوريةٍ ليسوا في مناصبِهم بحكمِ الوراثةِ ولكن بحكمِ الاختيارِ أو الانتخابِ الشعبيِّ العامِّ الذي يَتِمُّ من وقت لآخر .

وفى انجلترا ، كما تعلمين ، لا يزالُ نِظامُ الحكمِ مَلَكياً يَتولاّهُ مَلِكٌ لا يتمتعُ بأيةِ سلطةٍ أو قوةٍ . والسلطة الحقيقية فى انجلترةَ إنما هى للبرلمان الذى يجتمعُ فيه نوابُ الشعبِ المنتخَبون ، وأظنك قد رأيتِ فى لندن هذا البرلمانَ أو مجلس العموم كما يسمونه .

وفى الهند لا يزال لدينا كثيرون من الراجاتِ والمَهَراجاتِ والنَّوَاب[1] Nawabs وأنتِ تشاهدينهم فى كلِّ مكانٍ يَرْتَدُون أفخرَ الثيابِ ويركبون أغلى السيارات ويُنفقون أموالاً طائلةً على أنفسِهم .

من أين لهم بكلِّ هذه الثَّرَوَاتِ والأموالِ ؟ إنهم يَحْصُلون عليها من الضرائبِ التى يَفرِضُونها على الناسِ ثم يَجبونها منهم بأيةِ وسيلةٍ .

والأصلُ فى الضرائبِ أن تُعطى لاستخدامِها فى معونةِ كلِّ طبقاتِ الشعبِ بإنشاء المدارسِ والمستشفياتِ والمكتباتِ

(١) الأمراء .

والمتاحفِ، وشقّ الطرقِ ورصفِها وغيرِ ذلك من الخدمات التى تعود بالنفع العامّ على المجموع.

ولكنّ راجاتِنا ومَهَراجاتِنا لا يزالون يُفَكّرون بعقليةِ مَلِكِ فرنسا الذى قال: «الدولةُ هى أنا». إنهم يُنفقون أموالَ الشعبِ على مُتَعِهم ومَسَرّاتِهم. وبينما هم فى تَرَفٍ ورَغَدٍ منَ العيشِ نرى رعاياهم ومصدرَ ثَرائِهم وغناهم يَتَضَوّرونَ جُوعاً، ونَرَى أطفالَهم جَهَلَةً لا يجدون مدرسةً يتعلمون فيها!.

الرسالة الثامنة عشرة

المدنيات الأولى

لقد حدثتك بما فيه الكفاية مؤقتا عن البطارقة والملوك . والآن دعينا نرجع قليلا إلى الوراء حيث نَسْتَقْرِئُ المدنياتِ الأولى ونوعَ مَن عاشُوا فى هذه المدنيات .

ونحن لا نعرف الكثير عن أبناء المدنيات الأولى ، ولكنّ القدْرَ الذى نعرفه عنهم أكثرُ بكثيرٍ مما نعرفه عن أبناءِ العصرِ الحجرىّ الحديث .

وما زال لدينا حتى الآن أطلالُ مبان ضخمةٍ بُنِيَتْ منذ آلاف السنين . والناظرُ إلى هذه المبانى والمعابدِ والقصورِ يستطيع أن يُكَوِّنَ فكرةً عما كان عليه الأوائلُ وعما فعلوه . وأنواعُ النحتِ والنقوشِ التى على هذه المبانى نافعةٌ لنا من هذه الناحية

بوجه خاص . فمنها نستطيع أن نعرف أحيانا نوعَ ملابسهم وكثيراً مما يتصل بحياتهم .

ونحن لا نستطيع أن نقولَ على وجه التحديد ما هو أولُ مكانٍ استوطنه الإنسانُ وأَوْجَدَ فيه مدنيَّة . فبعضُ الناس يزعمون أنه كان هناك قطرٌ كبيرٌ يسمونه الآن « أطلانطيس » فى المحيط الأطلنطى . ويقال إنّ جِنساً من الناس عاش فى هذا القطر على درجة عالية من التمدن . ولكنْ لسببٍ مَا ابتلع المحيطُ الأطلنطى هذا القطرَ كلَّه وأخفى معالمَه وآثارَه . ولما لم يكنْ لدينا دليلٌ يؤيد ذلك إلا الأقاصيصَ كان لا بُدَّ أنْ نُلْغِيَ هذا الزعمَ من حسابنا وألا نعتبرَه .

ثم أخبرَنا بعد ذلك بعضُ الناس أنّ مدنياتٍ كبيرةً قامت فى العصور القديمة فى أمريكا . وأنتِ تعرفين أنّ كولومبوس اكتشف أمريكا . ومعنى ذلك أنّ أهلَ أوروبا لم يعرفوا شيئا عنها حتى اكتشفها لهم كولومبوس . وقد عاش الناسُ فيها من قبل كولومبوس بزمن طويل وكان لهم نوعٌ من المدنية .

وقد عُثر على آثار لمبانٍ قديمة فى « يوكاتان » «Yukatan» :

فى المكسيك التى هى فى أمريكا الشمالية، وفى « بيرو » التى هى فى أمريكا الجنوبية. ومن ذلك نستطيع أنْ نَجزمَ بأن أقواماً متمدينين عاشوا فى بيرو ويوكاتان فى عصور مبكرة جدا ، ولكنَّ ما عُرِفَ عنهم حتى الوقتِ الحاضر قليلٌ لا يَرْوِى غلّةً . وربما أمكنَ العثورُ فى المستقبل على حقائقَ أكثرَ عنهم .

ثم إنك تعرفين أنَّ « أوراسيا » « Eurasia » اسم يُطلَق على أوربا وآسيا مجتمعتين . ومن المحتمل أنَّ المدنياتِ الأولى التى ظهرت فى أوراسيا كانت فيما بين الفراتين وفى مصر وكريت والهند والصين . ومصر تُعَدُّ الآن جزءاً من إفريقية ، ولكنْ من الممكن اعتبارُها ضمنَ أوراسيا لقربها من القارتين : أوروبا وآسيا .

لقد اعتادتِ القبائلُ الأولى التنقلَ والترحالَ ولكنها أرادت أخيرا أنْ تستقر ، فأىَّ مكان يجب أن يختاروا لاستقرارهم واستيطانهم ؟

يجب أن يكون مكانا يستطيعون الحصولَ فيه على طعامهم بسهولة . وهذا الطعامُ أو القوتُ كان لا بُدَّ من تنميتِه فى الحقول بالزراعة . والماء بالنسبة للزراعة ضرورىٌ وحَيَوِىٌ ؛ فالحقول بدون الماء تجف وتَذوِى ولا ينمو شىءٌ فيها .

وأنتِ تعرفين أنه إذا لم يكن هناك مطرٌ كافٍ فى أثناء موسم الأمطار فى الهند فإنَّ محصولاتِ الأرضِ الغذائيةَ تقلُّ، ونتيجةً لذلك لا يجِدُ الناسُ وخاصةً الفقراءُ منهم ما يأكلونه فيتضوَّرون جوعاً؛ ومِنْ ثَمَّ كان الماءُ عنصراً ضروريًّا وحيَوِيًّا.

وعلى ذلك فلا بُدَّ أنَّ أولَ مَن استوطنوا الأرضَ قد اختاروا أماكن معيشتهم وإقامتهم على مقربة من المياه الغزيرة. ففى العراق استقر الناسُ فيما بين النهرين الكبيرين دجلةَ والفرات، وفى مصر استقروا على ضفتَى النيل، وفى الهند كانت معظم مدنهم بالقرب من الأنهار الكبيرة مثل السند والكنج وجُمْنا.

لقد كان الماءُ عنصرًا حيَوِيًّا بالنسبة لهم لدرجة أنهم نظروا إلى تلك الأنهار على أنَّها كائناتٌ مقدسةٌ طاهرةٌ تهَبُ لهم القوتَ والخيرَ العميمَ.

ففى مصر سَمَّوْا النيلَ «النيلَ الإله» وعبدوه.

وأنت تعرفين أنَّ الهنود عبدوا نهرَ الكنج ولا يزال يُنظرُ

إليه على أنه مقدسٌ ، وأنه يُسَمَّى « الـكنج الأم »؛ ولا شك أنك سمعت الحجّاج يصيحون : « يحيا الـكنجُ الأم » .

ومن السهل أن تفهمى سبب هذه العبادةِ ، لأنَّ هذه الأنهارَ كانت تَعْنى بالنسبة لهم أشياءَ كثيرةً . فهى لم تَهَبْهُم الماء فقط وإنما وَهَبَتْهم بجانب ذلك الطِّمْىَ والرمل اللذين يجعلان الحقولَ غنيةً خِصبةً . فبفضل مياهِ الأنهارِ وطميها أَمَدَّتهم الأرضُ بالكثيرِ من الخيرات والطعام . من أجل ذلك لم يكن هناك بأسٌ مِن تسميتها « بالأب »و « الأم ». ولـكنْ من عادةِ الناس أن يَنسَوْا لماذا يفعلون الأشياء وأن يَمْضُوا فى تقليدِ الآخرين بلاتفـكير . فعلينا أن نتذكرَ أنَّ النيلَ والـكنج اعتُبِرا مقدسَيْنِ لأنهمَا منحا الناسَ الماء والغذاء والخيراتِ .

المدن الكبرى فى العالم القديم

لقد عرفنا مما سبق أن الناسَ استقرُّوا على مقربة من الأنهارِ والوِديان الخِصبةِ حيث الماء والغذاء متوافران بكثرة . كما عرفنا أن مدنَهم الكبيرةَ كانت على شواطئ الأنهار .

وربما سمعتِ بأسماء بعض هذه المدنِ القديمةِ الشهيرةِ . ففيما بين نهرَيْ دجلةَ والفرات كانت بابلُ ونينوى وآشورُ .

ولكن كل هذه المدن قد زالت من الوجود منذُ عَهدٍ بعيد . ولا يزال الناسُ يجدون أحيانا آثاراً وبقايا منها عن طريق الحَفْرِ والتنقيب . وعلى مرور آلاف السنين اختفت هذه المدنُ تحت الأرضِ والرمالِ حتى صارت أثراً بعد عَيْنٍ .

وفى بعض الأماكن بُنِيَتْ مدنٌ جديدة فوق آثارِ المدنِ القديمةِ التى اندثرت واختفت .

وهؤلاء الذين كانوا يحاولون أن يكشفوا شيئاً عن هذه المدن القديمةِ اضطروا أن يحفِروا إلى أعماقٍ بعيدةٍ، وفى بعض الأحيان وَجدُوا مُدُناً بعضُها فوقَ بعضٍ .

وهى لم تُوجَدْ بطبيعة الحالِ على هذه الصورة فى وقت واحد ولكنَّ الأقربَ إلى الاحتمال هو أنَّ مدينةً وُجِدَتْ لنحو أربعمائة سنةٍ عاش فيها الناسُ وماتوا ، ومِن بعدهم عاش ومات فيها أطفالهم وأطفالُ أطفالِهم .

وبالتدرُّجِ هُجِرت وقَلَّ عددُ سكانِها . وفى النهاية لم يَعُدْ أحَدٌ يعيش فيها وأصبح كلُّ المكانِ أطلالاً وخرائبَ . ثم جاء الترابُ والرمالُ فَغَطّياها دون أن يُوجَد مَن يُزيلهما . ثم على توالى السنين أصبحتِ المدينة مغطاةً بالأتربةِ والرمال حتى نَسِيَ الناسُ أنها وُجِدَتْ يوماً ما .

ولا بُدَّ أنَّ مِئاتٍ أخرى من السنين مَرَّتْ ثم ظهرت هناك شعوبٌ جديدةٌ قَبَلَتْ مدينةً جديدةً أصبحت بدورِها قديمةً مهجورةً مُهَدَّمَةً . مدينةً اختفتْ أيضا كما اختفتِ المدينة الأولى على تعاقب الأجيالِ والقرون .

فإذا عرفنا ذلك سَهُلَ علينا أن نُدركَ لماذا نجد أحيانا آثارَ مُدُنٍ كثيرةٍ أُقيم بعضُها على بقايا البعض الآخر . وقد حدث ذلك وبخاصةٍ فى الأماكن الرمليّةِ ، لأنّ الرملَ بطبيعته يُغَطّى كلَّ شىءٍ بسرعةٍ .

وإنه لشىءٌ عجيبٌ أنْ تظهرَ وتَنمو مَدينةٌ على أثرِ مَدِينةٍ ، وأن تُؤوِىَ جماهيرَ الناسِ من رجالٍ ونساءٍ وأطفالٍ ثم تتلاشى وتزولَ من الوجود تدريجياً وكأنها لم تكن . ثم تنشأ فوق هذه المـــدنِ القديمة مدنٌ أخرى جديدةٌ يَومًا ويعيش فيها شعوبٌ جديدةٌ تزول هى الأخرى فى النهاية وتنمحى دون أن تترك وراءها أثراً أو خبراً .

لعلكِ لاحظتِ أنى أجْمَلْتُ لك هنا قصةَ هذه المدنِ فى جُمَلٍ قليلةٍ . ولكنْ فكِّرى فى آلافِ الآلافِ من السنين التى لا بُدَّ أنها مرّتْ على هذه المدنِ لكى تَنْمُوَ وتموتَ ، ثم عن مدنٍ أخرى لِتقومَ وتحْتَلَّ مكانَها .

ونحن ندعو الرجلَ شيخاً مُسِنًّا إذا بلغ من العمر سبعين أو ثمانين سنةً . ولكنْ ما قيمةُ هذه السبعين أو الثمانين إذا ما قورِنَتْ

بهذه الآلافِ من السنين ؟ وكم مِن الأطفالِ أصبحُوا عجائز ، ثم ماتوا جيلا بعد جيل فى هذه المدنِ أثناء وجودها ؟ فمدن بابلَ وأشور ونينوى بالنسبة لنا ليستْ إلاّ مجردَ أسماء .

ومدينةُ دمشقَ فى سوريا هى إحدى المدنِ القديمةِ جدا ، ولكنّ دمشقَ لم تَمُتْ . فهى لا تزال موجودةً ومعدودةً من المدن الكبرى . وعلى مايقال إن من المحتمل أن تكونَ دمشقُ أقدمَ مدينةٍ فى العالَم اليوم .

وأكبرُ مدِننا فى الهند هى ما نشأت على ضفافِ الأنهار . ومن أقدم مدِننا مدينةٌ كانتْ تُسَمَّى إندرابْرَاسْثا Indraprastha التى كانت على مقربة من مدينةِ ديلهى، ولكنّ إندرابْرَاسْثا ليس لها وجودٌ الآن .

وبناراس Banaras أو كاشى Kashi هى الأخرى مدينة قديمةٌ جدا . وربما كانتْ واحدةً من أقدمِ المدنِ الموجودةِ فى العالم . ومدينة « الله أباد » و «كانبور » و « پاتنا » ومدنٌ أخرى كثيرةٌ مما تستطيعين أنتِ أن تفكرى فيها هى أيضا من المدنِ التى نشأتْ على ضِفافِ الأنهارِ .

ولكنَّ هذه المدنَ ليست قديمةً جدا ، وإنْ كانتْ « پراياج » و « الله أباد » و « پاتنا » أو « پاتاليبوترا » تُعتَبر من المدن القديمة نِسْبِياًّ .

وما دمنا بصددِ الحديثِ عن المدن القديمةِ فلا يفوتنى أن أذكر هنا أنَّ فى الصين مدناً قديمةً أيضا .

مصر وكريت

ما نوعُ الشعوبِ التى عاشتْ فى مُدنِ العصور القديمة وقُرَاها ؟

نستطيع أنْ نعرفَ شَيئاً عنهم عن طريق ما خلّفته هذه الشعوبِ من آثار ومَبانٍ عظيمةٍ ، وكذلك عن طريق ما كتبوه على الألواح الحجرية مِمّا يُنبئُنا بالكثير عن حياة أهلِ العصورِ القديمة .

فنى مِصْرَ لا يزال لدينا الأهرامُ وأبوالهول وبقايا معابدَ عظيمةٍ فى الأقْصُرِ وسائرِ الأماكن الأثريّةِ الأخرى وأنتِ لم تشاهدِى بعدُ هذه الآثارَ المصريةَ القديمةَ ، وإنْ حَدَثَ أنكِ كنتِ على مقربة منها حينما مررنا فى قنال السويس .

ولكنكِ قد رأيتِ صُوَرًا لهذه الآثار ، ومن المحتمل أن

يكون لديكِ بعضُ بِطاقاتٍ للبريد Postcards عليها صُوَرٌ لآثارٍ مصريةٍ قديمةٍ .

فأبو الهول تمثالٌ هائلٌ ضخمٌ له جسمُ أسدٍ ورأسُ امرأةٍ ، ولا أحدَ حتى الآن يعرف لماذا صُنِعَ أو ماذا يُمثِّلُ . أمّا رأسُه الذى هو رأسُ امرأةٍ فتبدو على الوجه منه ابتسامةٌ غريبةٌ هادئةٌ يَعْجَبُ الناسُ ويحارون فى مَغزاها . فإذا قلتِ إنّ شخصاً مّا يُشبه أبا الهول كان معنى ذلك أنه لُغْزٌ لا يُفْهَم .

والأهرامُ أيضا أبنيةٌ هائلةٌ ضخمة . وهى فى الواقع مقابرُ لملوكِ مصرَ القدماءِ المعروفين فى التاريخ بالفراعنة .

هل تذكرين رُؤيتَكِ للمومياتِ المصرية بالمتحف البريطانِىِّ فى لندن ؟ فالموميا هى جُثّةُ إنسانٍ أو حيوانٍ مَيّتٍ وُضِعَ عليها بعضُ الزيوتِ والعقاقيرِ لمنعها من التحلل والفسادِ . وهذا ما يُسَمَّى بالتحنيط .

فجثثُ الفراعنةِ أُحِيلتْ عند الوفاةِ إلى مُومياتٍ مُحَنَّطَةٍ ثم دُفِنَتْ داخلَ هذه الأهرامِ الضخمةِ . وقد وُضِعَ بالقرب منها الحُلِىُّ والأوانى الذهبيةُ والفضيةُ والأثاثُ والطعامُ .

وكان ذلك اعتقاداً من الفراعنة بأنهم قد يحتاجون إليها بعد الوفاةِ.

ومنذ سنتين أو ثلاث سنوات (١) كُشِفَ فى إحدى المقابر المصريةِ القديمةِ عن جثةِ فرعونٍ اسمُه توت عنخ آمون، كما عُثِرَ بجوارها على أشياء كثيرةٍ جميلةٍ قيّمةٍ.

وفى مصرَ أيضاً شَقَّ الفراعِنةُ القدماء تُرَعاً وجداولَ وقَنَوَاتٍ وبحيراتٍ لتحملَ الماءَ الصالحَ للريِّ والزراعةِ. ومن هذه البحيرات بحيرة قارون الشهيرةُ. وذلك كلُّه يُظهِر إلى أيِّ مدى بلغت مهارةُ المصريين القدماء وبلغ تَقَدُّمُهم. ولا بُدَّ أنه كان لديهم مهندسون ممتازون فى بناء الأهرام وفى شق الترع والجداولِ والقنواتِ والبحيراتِ.

أما جزيرة كريت الصغيرة فتقع فى البحر الأبيض المتوسط، وقد مررنا بجوارها ونحن فى طريقنا من بورسعيد إلى فينيسيا. ففى هذه الجزيرة وُجِدَتْ مَدَنِيَّةٌ راقيةٌ فى العصور القديمة. وفى أكْنُوسُوسْ Knossos بجزيرةِ كريت وُجِدَ قصرٌ ضخمٌ لا تزال

(١) كشفت مقبرة توت عنخ آمون عام ١٩٢٢ .

آثارُه باقيةً ، وقد اشتمل هــــذا القصرُ على حماماتٍ وأنابيبَ للمياه كتلك الأنابيب التى يَظنُّ بعضُ الجهلة أنها من مخترعات العصرِ الحديث . كذلك وُجِدَ خَزَفٌ ونَحْتٌ وتصـويرٌ جميلٌ وأعمالٌ عاجيَّةٌ ومعدنيَّةٌ دقيقةٌ .

وفى جزيرة كريت الصغيرة هذه عاش الناسُ عِيشةً هادئةً وتقدموا تقدما كبيرا .

ولعلكِ قرأتِ عن الملك ميداسَ الذى تَعرَّضَ لمصاعبَ شـديدةٍ لأنَّ كلَّ شيءٍ لَمَسَهُ استحال إلى ذَهَبٍ . فهو لم يستطعْ أن يأكلَ لأنَّ طعـامَه تحـوَّل ذهباً . وما قيمـةُ الذَّهَبِ كطعامٍ ؟ لقد عوقب على طَمَعِه بهـذه الطريقة . هـذه بطبيعة الحال قصـةٌ خياليةٌ قُصِدَ بها أن تُبيِّنَ لنـا أنَّ الذهبَ ليس شيئاً جميلا أو نافعاً دائمـا كما يَتوهَّمُ الناسُ .

وهناك قصةٌ أخرى عن جـزيرة كريت ربمـا تـكونين قد سمعتِ بها . إنها قصة « المينوتير » Minotaur الذى يُظَن أنه كان وحشاً نِصْفُه رَجُلٌ ونصفه الآخر ثورٌ . فيقال إنَّ الفتيانَ والفتياتِ كانوا يُقدِّمون طعاما لهذا الوحش . لقـد أخبرتكِ

من قبل أنّ فكرة الدّين ظهرتْ أولَ ما ظهرت خوفاً من المجهول. وبسبب هذا الخوف ولعدم فهم الطبيعة أو فهم الكثير مما يحدث حولنا اعتاد الناسُ أن يرتكبوا ضروباً شتى من الحماقات. فمن الممكن جدا أنّ الفتيانَ والفتياتِ قُدِّموا ضحيةً بهذا الأسلوب لا لوحشٍ حقيقي بل لوحش خياليّ؛ إذ لا أظن أنّ وحشاً كهذا قد وُجِد حقًّا.

فى هذه العصور القديمة وُجِد فى جميع أنحاء الدنيا مايُسَمّى بالضّحيّةِ أو القُربانِ الإنسانى، وأعنى بذلك أن يُضَحّى بالرجالِ والنساءِ لكائناتٍ خياليّة عبدَها الناسُ.

ففى مصر جرَتِ العادةُ قديما على إلقاء فتياتٍ فى نهر النيل لعقيدتهم أن ذلك قد يَسُرّ إلٰهَ النيل.

ومن حسن الحظ أنّ القرابينَ الإنسانيةَ لا تقدَّمُ الآن، اللهم إلاّ نادرًا فى بقاع نائية من الدنيا. وإنه ليُوجَد حتى اليوم بعضُ أُناسٍ يَذبحون الحيواناتِ ويُضحُّون بها ابتغاءَ رضاءِ الآلهة. وما اغربها طريقة لعبادة اى احدٍ!

الرسالة الحادية والعشرون

الصين والهند

لقد رأينا أنّ المدنياتِ الأولى نشأت وازدهرت فى العراقِ فيما بين نهرَىْ دجلة والفرات وفى مصرَ وجزيرة كريت الصغيرة التى تقع فى البحر الأبيض المتوسط . وفى الوقتِ نفسِه تقريبا نشأت فى كلٍّ من الصينِ والهند مَدَنِيّةٌ أخرى عظيمةٌ كان لها أسلوبُها الخاصُّ وخصائصُها المميزةُ .

ففى الصين ، كما فى كلٍّ مكانٍ آخرَ ، استقرتْ جماعاتٌ من الناس فى وديانِ الأنهارِ الكبيرة ، وهؤلاء هم مَن نسميهم بالمغول . وقد كان أولئك المغولُ مهرةً فى الصناعة ، فقد صنعوا أوعيةً وأوانىَ من البرونز ثم صنعوها أخيرا من الحديد . كذلك شقّوا التُّرَعَ والقَنَواتِ وأنشئوا القناطرَ الكبيرةَ وابتكروا نوعاً

من الكتابةِ يختلف عن كتابتنا الهنديةِ والانجليزيةِ والأرْدِيَّةِ . لقد كانت نوعا من الكتابة التصويرية حيث يُدَلُّ على الكلمةِ وأحيانا على الجملةِ القصيرةِ بصورةٍ .

وفى مصرَ القديمةِ وكريتَ وبابلَ كانت الكتابةُ المستعملةُ هى الكتابةُ التصويرية أيضا ، وهـــذه هى ما نسميها الآن بالكتابةِ الهِيرُوغْليفيَّةِ . ولا بدَّ أنكِ قد رأيتِ هذه الكتابةَ فى المتاحفِ وبعضِ الكتب . ولا تُوجد هذه الكتابةُ التصويريةُ فى مصرَ وفى الغرب إلاّ على المبانى القديمةِ جدًا . وقد بطل استعمالُ هذه الكتابةِ فى مصرَ منذ زمن طويل .

أما فى الصينِ فالكتابةُ لا تزال حتى الآن نوعاً من الكتابة التصويريةِ ، وهى تُكتَب من أعلى إلى أسفلَ وليست من الشمالِ إلى اليمين كما فى الهندية أو الإنجليزية ، أو من اليمين إلى الشمال كما فى الأردية والعربية .

وفى الهندِ لايزال كثيرٌ من بقايا الآثارِ القديمة مَطْمُوراً تحت الأرضِ والرمال ، وستظل هذه محجوبةً عنا حتى يُنَقِّبَ عنها علماء الآثارِ . وقد عثَرَ هؤلاء العلماء على بعضِ هذه الآثارِ القديمةِ فى شمالِ الهندِ .

ونحن نعرف أنّ الدرافيديّين وُجِدُوا فى الهند قبل الآريين بزمن طويل . فهؤلاء الدرافيديُّون كانت لهم مدَنيَّةٌ راقيةٌ ، وكانوا يتاجرون مع بعض الشعوب الأخرى ، فكانوا يرسلون عن طريق البحر إلى العراق ومصرَ الكثيرَ من بضائعهم كالأرز والتوابلِ وأخشاب السّاج « التيك » teak التى كانت تُستخدَمُ فى بناءِ المنازلِ .

ويقالُ إنّ بعضَ القصورِ القديمةِ فى مدينة « أور » UR فيما بين النهرين صُنِعَتْ من خشب السّاجِ الذى كان يُرسَل من الهند الجنوبية . من ذلك نرى أن حركةً تجاريةً كبيرةً وُجِدَتْ فى تلك العصورِ القديمةِ بين الهند وبين بعضِ الأقطار الأخرى ، فالتجارة لا تستطيع أن توجد إلا إذا كان الناسُ متمدينين .

وفى كلٍّ من الهند والصين وُجِدَت حينئذ بعضُ دولٍ وممالكَ صغيرةٍ . ولم يكن لكل قُطرٍ من هذين القطرين حكومةٌ واحدة ، وإنما كان فيه لكل مدينة صغيرة بما يتبعها

من بعض القرى والحقول حكومةٌ مستقلةٌ . وكانت مثلُ هذه المدينة تُسَمّى « دولةَ المدينةِ » .

وكثيرٌ من دول المدنِ هذه كانت جمهورياتٍ ، وبعضُها كانت ممالكَ صغيرةً . فالجمهوريةُ حتى فى تلك الأزمان البعيدة جدا لم تكن محكومةً بملك وإنما بمجلسٍ منتخَبٍ من شيوخ القرية مؤلفٍ من خمسةِ أعضاءٍ .

ومع أن دول المدن هذه كانت لها كلّها حكوماتُها المستقلةُ فإنّ نوعاً من التعاون كان موجوداً بين بعضِها والبعضِ الآخر . وقد تَهيَّأ فى بعض الأحيان لدولةٍ واحدةٍ كبيرةٍ نوعٌ من الزعامة على عدد من دول المدن أو ما يصحُّ أن أنْ نسميها بالدُّوَيْلاتِ .

وفى الصين سُرعان ما أفسحت هذه الدويلاتُ المكانَ لدولةٍ كبيرةٍ عظيمةٍ أو إمبراطوريةٍ بُنِيَ سورُ الصينِ الكبير فى عصرِها .

لقد قرأتِ عن هذا السور الهائل الضخم . وما أضخمه حقيقةً من سور ! فقد بُنِى من البحر إلى الجبالِ الشامخةِ

فى الشمال ليمنعَ قبـائل المغول الأخرى من التسلل إلى داخل الصين .

ويبلغ طولُ هـذا السور ١٤٠٠ ميل ، وعرضُه ٢٥ قدماً ، وارتفاعُه من ٢٠ إلى ٥٠ قدماً ، وتتخلَّله على مسافاتٍ بعضُ القلاع والحصون . ولو أنَّ سُوراً كهذا بُنِى فى الهند لامتدَّ من لاهور فى الشمال إلى مَدْراس فى الجنوب .

ولا يزال هذا الســـورُ الضخمُ العظيمُ قائمـا حتى اليوم ؛ وتستطيعين أن تشاهديه إذا ذهبتِ إلى الصين .

الرسالة الثانية والعشرون

الملاحة والتجارة

كان الفينيقيون شعباً آخرَ من شعوبِ العالَم القديمِ المهمةِ. وهؤلاء يَنْتَمُونَ إلى نفسِ الجنسِ الذي ينتمي إليه العربُ واليهودُ. وقد استوطن الفينيقيون بوجه خاص الشاطئ الغربيَّ لآسيا الصغرى، وهؤلاء الفينيقيون هم لُبْنَانِيُّو[1] اليوم. وأهم مدنهم هي عكا وصيدا وصُور على شاطئ شرق البحرِ الأبيضِ المتوسطِ.

وقد اشتهر الفينيقيون هؤلاء بالملاحة لأسفارهم البحريةِ الطويلة من أجل التجـــارةِ، ولم يقتصر نشاطهم في ذلك على حوض البحر الأبيض المتوسط وإنما تَعَدَّاهُ إلى إنجلترا، ومن الجائز أنهم أَتَوْا إلى الهند أيضا.

من ذلك نرى ابتداءَيْنِ هامَّيْنِ لحدَثَيْنِ عظيمَيْن ؛ وأعني بذلك الملاحةَ والتجارةَ. وقد أعانت كلتاهما الأخرى.

(١) في الأصل أتراك.

ولم يكن هناك بطبيعة الحال في هذه الأيام سفنٌ وبواخر كالتي تشاهدينها اليوم . ولابد أنَّ المراكبَ الأُولَى كانت مصنوعةً من جذوع الأشجارِ الجوفاء ، وكان لها مجاذيفُ تحركها ، وأشرعةٌ تجتذب الريح . ولابد أن السفر بَحْراً في تلك الأيامِ كان نوعا من من الْجُرْأَةِ والمخاطرةِ .

ولكى تتصورى ذلك تخيلي عُبورَ بحر العربِ مثلا على مركبٍ شراعيٍّ صغيرٍ . لابد أنه كان هناك مكانٌ صغيرٌ جـــدا للمسافرين ، ولا بد أنَّ أقلَّ ريح جعلت المركبَ يتمايلُ ويتأرجحُ وكثيراً ما انتهتْ به إلى الغرق .

فالرجلُ الشجاعُ فقط هو الذى كان يَجْرُؤُ على الخروج إلى عَرْضِ البحر في مركبٍ كهذا مُجازفاً بحياته . فقد كانتِ الملاحةُ على هذه الصورةِ مليئةً بالمخاطرات ، ولربما ظلَّ البحارةُ في بعض الأحيانِ أشهُراً لا يَرَوْنَ فيها أثراً للأرض . وإذا حدث أنْ قلَّ الطعامُ أو نفدَ فلم يكن في استطاعتِهم ، وهم في عَرْضِ البحرِ ، أن يحصلوا على أيِّ شيءٍ منه إلا عن طريق ما يصطادونه من سمك أو طيور . لقد كان البحر مليئاً بالمخاطرات والأحداث الخيالية . وهناك كثير

من قصص بحارةِ تلك العصور ترْوِى ما شاهدوه فى أسفارهم البحرية من عجائبَ وما حدث لهم فيها من غرائبَ .

وعلى الرغم من الأخطارِ التى كانت تَحُفُّ براكبِ البحر وقتذاك ، فإنّ الناس قد مَضَوْا فى أسفارهم عَبْرَ البحار . فَبعضُهم خرجوا إلى البحر حبا فى المخاطرات ، وأكثرهم خرجوا إليه حبا فى الذهب والمال عن طريق شراء الأشياء وبيعها .

والآن ما هى التجارة ؟ وكيف بدأت ؟ إنكِ تشاهدين الآن متاجرَ كثيرةً ، ومن السهل عليك أن تدخليها وتشترى منها ماتحتاجين إليه. ولكنْ هل دار بخاطركِ مرةً من أين تأتى الأشياء التى تشترينها ؟ لعل «شالا» صوفيأ تشترينه من مَتجر فى « الله آباد » يكون قد حضر من « كشمير » ولعل صوفَه يكون قد أُخِذ من على ظهور أغنامٍ فى جبال « كشمير » أو « لدخ » .

ولعل معجون الأسنانِ الذى تشترينه يكون قبل أن يصل إلى يدك، قد اجتاز من أمريكا إلى الهند رحلةً طويلةً : بالسفن تارةً وبالسكك الحديدية تارةً أخرى. ولعلك هكذا تشترين أيضا أشياء صُنِعَتْ فى الصين أو اليابان أو باريسَ أو لندنَ .

ثم فكرى فى قطعة من النسيج الأجنبى التى تباع فى أىّ سوق من أسواق المدن عندنا . فالقطن زُرِعَ فى الهند، ثم أُرْسِلَ إلى انجلترا حيث أخذه مصنعٌ من مصانع النسيج فنظّفَه ثم غزله ثم نسجه، ثم أُرْسِلَ ثانيةً إلى الهند حيث بِيع فى الأسواق .

فكم عددُ آلافِ الأميالِ التى قطعها هذا النسيجُ ومادّتُه الأولى ذهابا وإيابا قبل عرضه للبيع ؟ وانه ليبدو ضَرْباً من الجهالة والغفلة أنْ يُزرعَ القطنُ فى الهند، ثم تقضى الضرورةُ أن يَرحلَ كلّ هذه الرحلةِ إلى انجلترا ليُصنعَ نسيجاً ثم يعودَ إلينا ثانية . وإن شيئا كهذا لايبدو إلا ضياعاً للوقت والمال والجهد ومما لاشك فيه أنّ هذا القطنَ لو صُنِعَ نسيجا فى الهند لكان أفضلَ وأرخصَ .

وأنت تعرفين أننا لا نشترى ولا نلبَس ثيابا صُنِعَتْ خارجَ الهند . فنحن نرتدى « الخدّار » khaddar لأنه من العقل أنْ نشترى، على قدر ما نستطيع، من مصنوعات ومنتجات بلادنا . ونحن أيضا نشترى ونرتدى « الخدّار » لأننا بذلك نساعد الفقراء منا ممن يَغزلونه ويَنسجونه .

ومن ذلك ترين أن التجارة الآن أصبحت عملية معقدة جدا. فالبواخرُ الكبيرةُ تحمل على الدوام بضائعَ وسلعَ قطر آخر.

ولكنّ الأمرَ لم يكن كذلك دائما؛ ففي العصور الأولى عندما بدأ الإنسانُ في الاستقرار والاستيطانِ لم يكن هناك تجارة. فكل ما احتاج إليه، وما أقله وقتذاك! كان مضطرا أن يحصل عليه بنفسه أو أن يصنعَه بنفسه.

ثم وُجِد مبدأُ تقسيم العملِ في القبيلة، كما أخبرتك من قبل؛ حيث بدأ الناس يقومون بأنواع من العمل المختلفة ويصنعون أشياء مختلفةً. ولا بد أنه قد حدث أحيانا أن وُجِدَتْ لدى قبيلةٍ كميةٌ وافرةٌ من سلعةٍ ما ولدى قبيلةٍ أخرى كميةٌ وافرةٌ من سلعة مغايرةٍ، فكان طبيعيا بالنسبة إليهما إذن أن تتبادلا السلع. فقبيلةٌ قد تعطي لقبيلةٍ أخرى بقرةً في مقابل كيسٍ من القمح؛ وذلك لأنه لم يكن هناك نقودٌ في تلك الأيام. كلُّ ما كان مستطاعا وقتذاك هو التعامل عن طريق التبادل.

وهكذا بدأ نظامُ التبادل. ولا بد أنه كان في أول الأمر مُتعِباً ومضايقا تقريبا، فللحصول على كيس من القمح أو ما أشبه، كان

على الإنسانِ أن يحملَ بقرةً أو خروفَين ، ولكنْ على الرغم من ذلك تطورتِ التجارةُ وارتقت .

وحينما كُشِفَ الذهبُ والفضةُ بدأ الناسُ يستعملونهما فى التجارة لسهولة حملهما ، ثم نشأت تدريجاً عادةُ دفعِ ثمنِ مانشترى بالذهب والفضة . ولا بد أنّ أولَ مَن فكر فى هذا كان شخصا ماهراً ذكيا ، لأنّ استعمالَ الذهبِ والفضةِ كوسيلة للمعاملة سهّلَ التجارةَ ويسّرها . ولكنْ حتى ذلك الحين لم يكن هناك نقودٌ كالتى لدينا الآن . لقد كانت العادةُ أن يُوزنَ الذهبُ بالميزانِ ثم يُعطَى لشخص آخر . ثم أخيرا جدا وُجِد النقدُ ، وهذا بدَوْرِه جعل التجارةَ والتبادلَ أكثرَ سهولةً ؛ فلم يَعُدِ الوزن مطلوبا حينئذ ؛ لأنّ كلّ إنسانٍ عَرف قيمةَ كلِّ قطعةٍ من قطع النقدِ والعُملةِ .

والآن تُستعمَلُ النقودُ فى كل مكان ، ولكنْ يجب أن نتذكر أنّ النقودَ لاقيمةَ لها فى ذاتِها لأنها إنما تساعدنا فقط فى الحصول على مانحتاج إليه ، كما تساعدنا فى عملية تبادل السلع والبضائع .

ولعلكِ تذكرين قصةَ الملكِ ميداسَ الذى كان لديه الكثيرُ من الذهب ولم يكن لديه ما يأكله ؛ ومن ثَمّ فالنقودُ لاقيمةَ لها

ولا نفعَ فيها إذا لم تُستعمَل فى الحصول على شىء مما نحتاج إليه.

ومهما يكن من أمر فستجدين النـــاسَ فى القُرَى إلى يومنا هذا، يتعاملون أحيانا على نظامِ تبادلِ السلع دون أنْ يدفعوا أىَّ نُقودٍ.

ولـكنّ النقودَ تُستعمَلُ بوجه عام لأنها أكثرُ ملاءمةً. على أن بعض الجهَلَةِ والحَمْقَى من الناس يتخيلون أنَّ النقودَ ذاتَها نافعةٌ، ولهذا يجمعونها ويكنزونهـــا بدلا من استعمالها. ولاشك أنّ ذلك يَدُلُّ على أنهم لا يعرفون كيف نشأت فكرةُ استعمالِ النقود، وماهى حقيقتُها وجوهرُها.

الرسالة الثالثة والعشرون

اللغة والكتابة والأرقام

لقد أشرنا فيما سبق إلى اللغاتِ المختلفة وكيفيةِ اتصالِ بعضِها ببعضٍ . واليومَ دعينا نبحث كيف نشأت اللغة .

وأولُ ما يَهدينا إليه البحثُ والتفكيرُ هو أننا نجدُ من الحيواناتِ ما يَستعمِلُ بضعةَ أصواتٍ متغيرةٍ . فالقرود ، كما يقال ، لها صَيْحَاتٌ أو ألفاظٌ تستعملها للتعبير عن أشياء بسيطةٍ . كذلك تستطيعين أن تلاحظي الصَّرَخاتِ الغريبةَ التي تَصْدُرُ عن بعضِ الحيواناتِ حينما يعتَريها الفزعُ والرعبُ وتريد أن تُحَذِّرَ الحيواناتِ الأُخرَى من الخطرِ المُحدقِ بها .

ولربما نشأتِ اللغةُ لدى الإنسانِ مثلَ هذه النشأة ، أعني أنها بدأت بصرخاتٍ بسيطةٍ جدا تَدلُّ على الخوف والتحذير . ولربما

تلا ذلك ما يُسَمّى بصرخاتِ العملِ أو العُمّالِ . فالملاحَظ عندما يشتغل عددٌ من الناس معا أنهم يُحدثون عادةً ضجةً وضوضاء جماعيةً . ألم تلاحظى بعضَ الناسِ يفعلون ذلك مجتمعِين وهم يَجُرُّون شيئا أو يَحملون حملا ثقيلا ؟ فإذا دَلّتْ هذه الأصواتُ المنبعثةُ منهم جميعا فى وقت واحد على شىء فعلى أنها تساعدهم وتخفف عنهم قليلا مَشَقّةَ حَمْلِ الأثقالِ وجَرِّها . فصيحاتُ العمالِ هذه قد تكون هى الألفاظَ الأُولى التى استعملها الإنسانُ .

ثم لابد أنّ ألفاظاً بسيطةً أُخرى جَدّتْ تدريجاً كألفاظ الماء والنار والحِصان والدبِّ . ومن المحتمل أنّ الأسماء ظهرتْ قبلَ الأفعالِ ؛ فإذا أراد إنسانٌ أن يقولَ رأيتُ دُبّاً عَبّرَ عن ذلك بلفظةٍ واحدةٍ فقط هى « دُبٌّ » مُشيراً إلى الدُّبِ بيده كما يفعل الطفلُ تماما . ولهذا قلّما كان هناك حينئذ حديثٌ أو محادثةٌ .

وعلى توالى العصور تطورتِ اللغةُ فظهرتِ الجُمَلُ القِصَارُ ثم الجُمَلُ الطِّوَالُ ولعل الناسَ لاختلافهم لم يتكلموا لغةً واحدةً فى أى وقتٍ من الأوقات . ومع اختلافهم فقد كانت لغاتُهم حينئذ

قليلةَ العددِ . وكما أخبرتكِ من قبل كان هناك بِضْعُ لغاتٍ قليلةٍ تطورت كلٌّ واحدةٍ منها وتفرعت إلى أسْرَةٍ من اللغاتِ .

وفى عصور المدنياتِ الأُولَى التى لا نزال بصدد الحديث عنها ارتقتِ اللغةُ وتطورت تطورا كبيرا ، فوُجِد كثيرٌ من الأغانى والشعراءِ والمغنين الذين اعتادوا أن يُنشدوها ويُغنُّوها . ولم يكن هناك فى تلك الأيام كثيرٌ من الكتابة والكتبِ . ولهذا اضطر الناسُ أن يعتمدوا أكثرَ على حافظتهم وذاكرتهم .

ولما كان تذكُّرُ الشعرِ والقوافى أسهلَ من تذكر النثر فإننا نجد أنّ الأشعارَ والأغانى كانت شائعةً محبوبةً فى كل الأقطار التى كانت مهدَ المدنيات الأُولَى .

فالمغنون والشعراء أُغرِموا خاصةً بالتغنى بأمجادِ الأبطالِ الموتَى ، وكان الناسُ فى تلك الايّامِ أكثرَ اهتماماً واشتغالاً بالحروب ، ولهذا كانت أغانى المغنين وقصائدُ الشعراءِ تدُورُ حولَ الشجاعة فى معاركِ القتالِ . ونحن نجد ذلك فى الهندِ كما نجده فى الأقطار الأخرى .

وللكتابة أيضا بدايةٌ هامّة . لقد أشرتُ سابقا إلى الكتابةِ

الصينيةِ التصويرية ، ولا بد أن كلّ كتابة ابتدأت بالصور . فالرجل الذى كان يريد أن يقول شيئا عن الطاووس كان يحاول تصويرَ أو رسمَ طاووس . وطبيعى لم يكن فى استطاعة أىّ أحدٍ أن يكتبَ كثيراً بهذه الطريقةِ . وتدريجاً بدأتِ الصُّوَرُ التى هى رموزُ الكتابةِ تصيرُ أسهلَ فأسهلَ . ثم أخيرا فُكِّرَ فى الأبجديةِ أو أحرفِ الهجاءِ وهُذِّبَتْ . وبهذا صارت الكتابة أيسرَ وأسهلَ كثيرا جدا عما قبل .

ولا بد أنّ الاهتداء إلى أرقام العَددِ كان كَشْفاً عظيما . فبدون هذه الأرقامِ يصعبُ على المرءِ أن يتخيلَ كيف كان يمكنُ أن يَتِمَّ أىُّ عملٍ . وعلى ذلك فالمخترعُ لهذه الأرقام لابد أنه كان عبقريا أو ذكياً جدا .

وأولُ الأرقام استعمالا فى أوربا هى الأرقامُ الرومانية . وهذه أقربُ فى شكلها إلى القبحِ منها إلى الجمالِ ، كما أنها فى الوقتِ ذاتِه صعبةُ الاستخدام .

والأرقام التى تُستعمَلُ الآن فى جميع اللغات أحسنُ بكثير جدا من الأرقام الرومانيةِ وأسهلُ منها استخداما . وهذه هى :

١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، وتسمى بالأرقام العربية لأنّ أهلَ أوربا عرَفوها عن طريق العرب.

ولكنّ العربَ أنفسَهم أخذوها عن الهنود ؛ ولهذا كان من الأصح أنْ نُسَمِّيَها بالأرقام الهندية.

وبعدُ فالحديث عن العربِ على هذه الصورة يشعرنى بأنى مُسرعٌ أكثرَ مما ينبغى ؛ لأن الكلام عن العرب فى وضعه الطَّبَعِيِّ من هذا العَرْضِ التاريخىِّ لم يَحِنْ بعدُ.

الرسالة الرابعة والعشرون

طبقات الناس المختلفة

كثيرا ما يُعَلَّمُ التاريخُ للأطفال والناشئة ذكورا وإناثا بطريقة غريبة . فهم يتعلمون أسماء الملوكِ وغيرِهم وتواريخَ المعاركِ الحربيةِ وما أشبهها .

ولكن التاريخ فى الحقيقة لا يتألفُ من معاركَ حربيةٍ وشخصياتٍ معدودةٍ صارتْ ملوكا وقوّاداً . التاريخ يجب أن يحدثنا عن الشعوب ، وكيف عاش الناسُ فى كل قُطر ، وماذا فعلوا ، وفيما فكروا ، كما يجب أنْ يخبرنا أيضا عن أفراحِهم وأحزانهم ، وعن المصاعبِ التى اعترضتْ طريقَهم وكيف تغلّبوا عليها .

فإذا درسنا التاريخَ على هذه الصورةِ وبهذه النظرةِ فإننا

نستطيع أن نتعلمَ الكثيرَ منه ، وإذا ألجأتْنا الظروفُ إلى أن نواجة مصاعبَ أشبهَ بمصاعبِ السابقين منا فإنَّ مطالعةَ التاريخ قد تساعدنا على اجتيازِ مصاعبِنا والتغلبِ عليها .

ودراستُنا لتاريخ العصور القديمةِ خاصةً تُعِينُنا على معرفةِ ما إذا كان هناك تقدُّمٌ أم لا ، وتطورٌ إلى الأحسنِ أم جمودٌ . وعلى المرء بطبيعة الحال أن يحاول تَعَلُّمَ شيء من سِيَرِ مشهوري الرجال وشهيراتِ النساء فى الماضي ، كما عليه أن يحاولَ أيضا معرفةَ حالةِ طبقاتِ الناسِ المتنوعةِ فى مختلف الأزمانِ .

لقد كتبتُ إليكِ سلسلةَ رسائلَ ، وهذه هي الرسالة الرابعة والعشرون منها ، ولكننا حتى الآن لم نتكلم إلاّ عن عصورٍ قديمة جدا لا نَعْلَمُ شيئا كثيرا عنها وقلما نستطيع أن نُسمَّىَ ذلك تاريخا ، وإنما يمكننا ، إذا شئنا ، أن نسميه بدء التاريخِ أو فجرَ التاريخ .

وسوف نتكلم قريبا عن العصور التى تلتْها والتى تُسَمَّى العصورَ التاريخية والتى نعرف عنها أكثر مما نعرف عن عصور ما قبلَ التاريخ .

ولكنْ قبلَ أن نتركَ المدنياتِ الأُولى دعينا نُلقِ نظرةً

أخرى سريعةً عليها لنرى ما هى طبقاتُ النـاسِ المختلفة التى عاشت فى عصور تلك المدنياتِ .

لقد رأينا فيما سلف كيف بدأ النـاسُ فى القبائل الأُولى يُزاولون أنواعاً مختلفةً من العمل ، وكيف بدأ تقسيمُ العملِ أو العمال . كذلك رأينا كيف مَيَّزَ رئيسُ القبيلةِ أو بِطريقتها أسرته من بقيةِ أفرادِ القبيلةِ الآخرين ، وكيف اختص نفسه بالإشراف فيها على تنظيمِ العملِ فقط ، فأصبح إنسانا أرقى نوعا وأصبحتْ أسرتُه مثلَه بالنسبة إلى سائر أُسرِ القبيلة .

وهكذا نرى طبقتين من النـاس : طبقةً تقوم بالإدارة والتنظيم ، وطبقةً أخرى تقوم بالعمل ذاتِه . وبطبيعة الحال كان للطبقة التى تضطلع بالإدارةِ والتنظيمِ سلطةٌ كبيرةٌ استغلّتْها فى إيثار نفسها بالاستيلاء على أكثرِ ما يمكن الاستيلاءُ عليه من أشياء . وقد أَثْرَتْ هذه الطبقةُ على حسابِ ما استغلته من مجهود الطبقة الأخرى العاملة .

ثم نشأتِ عدّةُ طبقاتٍ من النـاس نتيجةً لتقسيمِ العمل

واتساعِ مجاله . فقد كان هناك الملكُ وأسرتُه وحاشيتُه ، وهؤلاء قاموا بإدارة شئونِ المملكة والقتالِ من أجل حمايتِها ومصالحِها ، ولم يكنْ لهم فى العادة عملٌ غيرُ هذا . ثم كان هناك كَهَنَةُ المعابدِ ورجالها ممن وقفوا حياتَهم على خِدْمَةِ المعابدِ والعمَل فيها . وكان هناك طبقةٌ ثالثةٌ هى طبقةُ التجارِ ممن فتحوا المتاجرَ للبيعِ والشراء واشتغلوا بالمتاجرة فى السِّلع ونقلِها من بلدٍ إلى آخرَ .

وكان هناك طبقةٌ رابعةٌ هى طبقةُ الصناع التى اختصت بِصُنع كلِّ أنواع المصنوعاتِ كغزلِ الأقمشةِ ونسجِها ، وصُنعِ الأوانى الفَخَّاريةِ والنُّحاسيةِ والأدواتِ الذهبيةِ والعاجيةِ وأشياء أخرى كثيرةٍ .

وكثيرٌ من هؤلاء الناسِ عاشوا فى المدنِ أو بالقرب منها ، وكان هناك أيضا مَن عاشوا فى القرى .

وأخيرا كان هناك طبقةُ الزُّرَّاعِ والعمال ممن كانوا يشتغلون فى الحقول وفى المدن . وهذه كانت بطبيعة الحالِ أكبرَ الطبقاتِ وأكثرَها عددا . وقد حاولتْ كلُّ الطبقاتِ الأخرى أن تستغلَّ هذه وتبتزَّ شيئاً من مجهودِها وثمارِ عملِها .

الرسالة الخامسة والعشرون

الملوك والمعابد والكهنة

رأينا فى رسالتنا الماضية أنَّ خمسَ طبقاتٍ مختلفةٍ من الناس قد تكونت ، وأنَّ كبرى هـذه الطبقاتِ كانت طبقةَ الزُّرَّاعِ والعمال . فالزُّرَّاعُ حرثوا الأرضَ وتعهـدوا التُّرْبَةَ وزرعوا الحبوب والثمار . فلو لم يَقُم الزُّرَّاعُ بهذا النوعِ من العمل ، ولولم يكن هناك أحدٌ آخرُ للعمل فى الأرض ما كان هناك طعامٌ ، أو لكان الموجودُ منه على أية حالٍ قليلا نادرا . وعلى ذلك فالزُّرَّاعُ كانوا عنصرا أو طبقةً هامة جدا ، ولولاهم لكاد يجوعُ كل إنسان .

وكذلك قام العمالُ بأعمال نافعة للزراعة وفى المدن ، ومع أهميةِ هؤلاء الزراع والعمالِ ولزومِهم لكل إنسانٍ فإنَّ ما حصلوا عليه أنفسُهم كان ضئيلا جدا بالنسبة لعملِهم ومجهودِهم الشاق

المضى ، إذ أن معظم ما أنتجوه لم يَعُدْ عليهم وإنما عاد على غيرهم ولاسيما الملكِ وطبقتِه بما فيهم النبلاء .

فالملكُ وبطانتُه ، كما رأينا ، كان لديهم الكثيرُ من السلطة ، وفى أيام القبائلِ الأُولى كانت الأرضُ مِلْكاً للقبيلة كلِّها لا لفردٍ واحدٍ . وعندما زادت طبقةُ المَلِكِ قوةً قالوا إنّ الأرضَ مِلْكٌ لهم ، وبذلك صاروا مُلاَّكَ الأرض وأصبح الزراعُ الذين قاموا حقيقةً بالحملِ الشاقِّ عليها عبيداً لهم . ومهما أنتج الزراعُ فإنّ إنتاجهم كان يُوَزَّعُ وكان لصاحبِ الأرضِ منه النصيبُ الأوفى أو نصيب الأسد ، كما يقال .

وكانت بعضُ المعابدِ تمتلكُ هى الأخرى أرضا وقفا عليها ، ولهذا كانت من أصحاب الأراضى .

وعلى ذِكْرِ المعابدِ دعينا نرى ماذا كانت هذه المعابدُ وماذا كان عليه كهنتها . لقد أشرتُ فى إحدى رسائلى السابقة إلى أنّ الإنسانَ الأوّلَ المتوحشَ بدأ يفكر فى الإلٰهِ والدِّين لسببِ عدمِ فهمِه لأشياءَ كثيرةٍ ولخوفِه من تلك الأشياء التى لم يفهمها .

فقد اتخذ من كل شىء إلٰها أو إلٰهة . لقد اتخذ إلٰهــا أو إلٰهة من النهر والجبل والشمس والأشجار والحيوانات وغــير ذلك مما لم يستطع رؤيته ولــكن تخيله ، كالأرواح .

لقد كانت آلهتُه مثلَه قاسيةً صارمةً غليظةً ، ولـكونه كان خائفاً منها فقد تخيل أنهـا تريدُ أنْ تعاقبه ولهذا كان يحاول دائما أن يستعطفها ويسترضيهــا بتقديم القرابين إليها . فلهؤلاء الآلهةِ بُنيَتِ المعابدُ ، وقد كان فى داخلِ المعبد غرفةٌ تُسَمَّى حَرَماً أو مكانا مقدساً تَنصبَ فيه صنماً أو صورةً للإلٰه الذى كان يعبده ، إذ لم يكن ممكنا له أن يعبدَ شيئاً لايستطيع أن يراه بعينه .

وأنتِ تعرفين أنّ الطفلَ الصغيرَ لا يستطيع عادةً أن يفكرَ فى أشياء لايراها ، كذلك كان الناسُ فى أولِ أمرِهم أشبــــهَ بالأطفال . ولما لم يكن مستطاعا أن يعبدوا آلهـة غير مُحَسَّةٍ فقــد وضعوا لهــا صوراً وأصناما فى داخل معابدهم على حسب تخيلهم. ومن الغريب أنَّ هذه الصورَ أو الأصنام كانت صوراً أوأصناما قبيحةً مرعبةً لحيواناتٍ وأحيانا لأشياءِ نِصْفُها إنسانٌ ونِصْفُها حيوانٌ .

ففي مصرَ عُبدَتِ القطةُ في وقت من الأوقات ، وفي وقت آخر عُبدَ القردُ على ما أظن، وإنه لمن الصعبِ جدا فهمُ ذلك ، فإذا كان لابدَّ من عبادةِ صورةٍ أو صَنَمٍ فلماذا لا تُعبَدُ صورةٌ جميلةٌ أو صنمٌ جميلٌ ؟ ولكنْ ربما كانت الفكرةُ أنَّ الآلهةَ كانت شيئاً يخافُ منه ، ولهذا صُوِّرَتْ في هذه الأشكالِ المخيفةِ .

ولعل الناسَ في تلك العصورِ القديمةِ لم تفكرْ في إله واحدٍ أو في قوةٍ عظمى واحدةٍ كما يفكِّرُ معظمُ الناسِ الآن . لقد تخيلوا وجودَ عددٍ كبيرٍ من الآلهة والإلهات، كما تخيلوهم أحياناً في خصامٍ وتشاجر وصراع ، وكثيراً ما كان للمدن والأقطار المختلفة آلهةٌ مختلفةٌ للعبادةِ .

وكانت المعابدُ مكتظةً بالكهنةِ والكواهنِ ، وفي العادة كان الكهنة يعرفون القراءة والكتابة كما كانوا أعلَمَ من غيرهم . من أجل ذلك أصبحوا مستشارين للملوك ، وبواسطتهم كانت الكتبُ تُكتَبُ أو تُنْسَخُ في تلك الأيام .

ولأنهم كانوا على شيء من المعرفةِ اعتُبِرُوا حكماء عصرهم وأطباءه أيضا . وكثيراً ما أظهروا للناس بعضَ الحِيَلِ ليُبَيِّنُوا لهم

مقدار مهارتهم وليسيطروا بذلك على عقولهم ويفرضوا عليهم إرادتهم . لقد كان الناسُ وقتذاك على درجة كبيرة من السذاجةِ والجهل، ولهذا نظروا إلى الكهنة على أنهم سَحَرَةٌ يثيرون الخوف فى قلوبهم .

وقد اختلط الكهنةَ بالناس وتغلغلوا فى حياتهم فكانوا ، كما مرَّ ،حكماءهم وأطباءهم، ومن ثَمَّ كان الناسُ يَسْعَوْنَ إليهم يلتمسون عندهم حَلا لمشكلاتِهم أو دواء لأمراضهم . وقد أنشئوا ونظموا أعياداً للناس ،ولم يكن هناك فى تلك العصور أىُّ تاريخ Calendar وخاصة للعامة ولهذا كانوا يُؤَرِّخُون بأعيادِهم . وكثيرا ما أضلَّ الكهنةُ الناسَ وأساءوا قيادتَهم . ولكنهم ساعدوهم أيضا فى نواحٍ كثيرةٍ وهَيَّئُوا لهم سُبُلَ التقدمِ .

ومن الممكن أن يكونَ قد حدث فى بعض الأقطار أنَّ أهلَها عندما استقرُّوا لأولِ مرةٍ فى المدن كان يحكمُهم كهنةٌ لاملوكٌ، ثم ظهرت الملوك فيما بعد وعزلوا الكهنة لكونهم أشدَّ منهم وأقوى فى القتالِ . وفى بعض الأقطارِ كان الملكُ هو الكاهنَ أيضا كبعض الفراعنةِ فى مصر . فالفراعنة كان يُنظَرُ إليهم فى الحقيقة ، حتى فى حياتهم على أنهم أنصافُ آلهةٍ . أما بعدَ وفاتِهم فكانوا يُعبَدون على أنهم آلهةٌ .

نظرة إلى الوراء

أظنكِ الآن مُتعبةً من رسائلى ، ولهذا أرى أنكِ تستحقين بعض الراحة . ومهما يكن من أمر فلن أكتب إليكِ عن أىّ شىءٍ جديدٍ إلى حين . وكلُّ ما أُريده منكِ الآن هو أنْ تُفكّرى فيما سبق أن حدثتكِ عنه .

وما حدثتك عنه فى رسائلى القليلةِ ليس إلا عَرْضاً مُوجَزاً لرحلتنا السريعةِ خلالَ ملايينِ السنين . لقد بدأتُ هذه الرحلةَ من الوقتِ الذى كانتِ الأرضُ فيه قِطعةً من الشمسِ ، ثم رأينا كيف انفصلتْ منها وكيف أخذتْ على مرورِ الأزمانِ فى البرودةِ ببطءٍ ، ثم كيف انفصلَ القمرُ من الأرضِ .

ولم تكن الحياةُ موجودةً لعصورٍ طويلةٍ ، ثم فى خلالِ ملايينِ السنينِ نَمَتِ الحياةُ تدريجاً فى بطءٍ . وإنه لمن الصعبِ جداً أن يكونَ المرءُ قادراً على تكوينِ فكرةٍ عن ملايينِ السنينِ . فأنتِ

تبلغين من العمرِ الآن عَشْرَ سنواتٍ فقط. فما أسرعَ ما كبرت!
إنك الآن سيدة صغيرة.. أليس كذلك؟

فمائةُ سنة بالنسبةِ لكِ عمر طويلٌ جداً، فما بالكِ إذن بألفِ سنةٍ وما بالكِ بمليون سنة، والذى هو ألف سنة ألفَ مرة؟ إنَّ عقولنا الصغيرةَ لاتستطيع أن تتصور هذا. ونحن نتخيل أننا مهمون للغاية، ومع ذلك فتوافهُ الأشياء وصغائرها تُضايقنا وتُقلقنا. ولكن ماذا تكون هذه التوافهُ والحوادثُ الصغيرةُ بالنسبة إلى ما حدث فى تاريخ الدنيا الطويل؟ إنه لمن الخير لنا أنْ نُطالعَ عصورَ التاريخ الشاسعةَ هذه ونتعلم شيئاً مما وَعَتْهُ صحائفهُ. فإذا فعلنا فعندئذ لن نتضايقَ أوْ نقلقَ كثيرا بسبب توافهَ وحوادثَ صغيرةٍ.

دعينا نتذكر حِقبةً من الزمن طويلة جدا لم يكن فيها حياةٌ على الأرض مطلقاً، ثم حقبةً من الزمن أخرى طويلةً حينما وُجدت الحيواناتُ البحريةُ فقط. فى هذه الحقبة لم يكن هناك إنسانٌ على سطح الأرض، فالحيوانات كانت تظهر وتجول طليقة حرةً فى أى مكان لملايين السنين دون أن يعترضَ سبيلها إنسانٌ أو يَصيدَها أو يقتلَها أحدٌ. وحينما ظهر الإنسانُ أخيراً كان شيئاً

صغيرا ضئيلا ضعيفا ، بل أضعفَ الحيواناتِ جميعا ، ولكنه أخذ ينمو ويرقَى ببطء حتى صار على مرور آلافِ السنين أقوى الحيوانات وأذكاها ، وحتى صار أخيرا سَيِّدَ الحيواناتِ على سطح الأرض ، أما الحيواناتُ الأخرى فصارت خَدَماً له وعبيداً تصدعُ بأمره فى كل ما يُريدها عليه من أعمال . .

ثم نأتى بعد ذلك إلى نشأة المدنية . وقد رأينا ابتداءاتها الأولى التى سنحاولُ تتبعها فيما يلى من العصور . ونحن قد وصلنا فى رسائلنا هذه إلى فترة من الزمن بيننا الآن وبينها أربعة أو خمسة آلاف سنة فقط . وما نعرفه عن هذه الفترة أكثرُ بكثير جدا مما نعرفه عن ملايين السنين التى سبقتْها . فكلٌّ من التاريخ والإنسانِ قد تبوأ مكانَه الحقيقىَّ خلالَ هذه الأربعة أو الخمسةِ آلاف سنة . وعندما تكبُرين ستقرئين الكثير عن هذا التاريخ . ولهذا لن أكتب إليكِ عنه إلا القليلَ الذى يُعطيكِ فكرةً عامةً عما قد حدث للإنسان فى دنيانا الصغيرةِ هذه .

الآثار وبقايا الحيوانات القديمة

لم أكتبْ إليكِ منذ زمنٍ طويلٍ . وفى آخر رسالة بعثتُ بها إليكِ قبل هذه ألقينا نظرةً سريعةً إلى الوراء على عصور التاريخِ القديم التى عرضنا لها بالبحث فى رسائلنا السابقة . ولقد أرسلت إليك بعضَ صُوَرٍ لبقايا السمك القديم لتعطيَكِ فكرةً عامةً عما كان عليه السمك فى الأصل . وعندما تقابلنا فى مدينة مَسُورى أريتُكِ صُوَراً لبقايا حيواناتٍ أخرى . ولعلك تتذكرين بوجهٍ خاصٍّ بقايا الحيواناتِ الزاحفةِ كالثعابين والسحالى والتماسيح والسُّلَحْفَيَات التى نراها فى عصرنا . ولئن كانت زواحف العصورِ القديمةِ تَمُتُّ إلى نفسِ أسرةِ زواحفِ عصرنا فإنها كانت مختلفةً عنها وأكبرَ منها .

وسوف تتذكرين بقايا الوحوش العظيمةِ التى رأيتِها بمتحف «ساويث كنزنجتون» فى لندن والتى بلغ طول واحد منها بين ثلاثين وأربعين قدما . وكان هناك أيضا خفافيشُ ضخمةٌ اعتادتِ الطيرانَ ، ونوعٌ من الضفادع أكبرَ حجما من الإنسان ، ونوعٌ من السلحفياتِ البرية بلغ حجمُه حجمَ هذه الضفادع تقريبا . كذلك كان هناك سحلية جسيمة من آكلات العشب Iguanoden وهذه عند وقوفها على قدميها كانت تبدو كشجرة صغيرة . وقد رأيتِ أيضاً بقايا نباتاتٍ قديمةٍ ، كما وُجِدتْ على بعض الصخورِ آثارُ نباتِ السَّرْخَسِ وشجرِ النخيلِ وأوراقِ أشجار أخرى .

ثم ظهرت الحيواناتُ الثديية أو الحيواناتُ التى تُرضع صغارَها بعد ظهور الزواحفِ بزمن طويل . ومعظمُ الحيوانات التى نراها اليوم حولَنا — والإنسانُ واحدٌ منها — هى من الحيوانات الثديية التى عاشت فى العصور القديمة ، وهذه لا تختلف كثيرا عن بعض حيوانات عصرِنا اللهم إلا أنها كانت أكبرَ وأضخمَ جسما ، ولكنها مع ذلك لم تبلغْ فى الكثيرِ مبلغَ الزواحفِ . كذلك رأيتِ بعضَ بقايا الإنسانِ الأولِ من عظامٍ

وجماجمَ ، كما رأيتِ الأدواتِ التى استعملها لإشعال النارِ والتى تشبهُ الزنادَ .

وقد أريْتُكِ بعضَ صُوَرِ رائعةٍ لموميات ومقابرَ مصريةٍ قديمةٍ . وبعض هذه — إذا تذكرت — كانت جميلةً حقا ، وقد صُوِّرتْ على توابيتِ الموتى الخشبيةِ قصصٌ طويلةٌ لحياةِ بعضِ الناسِ . ولعلّ أكثرَ هذه أهميةً هو ما يوجد من تصويرٍ على حوائطِ مقابرِ قدماء المصريين فى مدينةِ طيبةَ .

كذلك رأيتِ صُوَرا للآثارِ الباقية من قصور طيبةَ ومعابدِها فى مصرَ . وهذه عبارة عن أبنيةٍ ضخمةٍ ذاتِ أعمدةٍ كبيرةٍ . وعلى مَقربة من طيبةَ يُوجَدُ تمثالا ممنون memnon الهائلان .

وهناك صورٌ أيضا لمعابدِ الأقصرِ وأبنيتِها المتهدمةِ فى صعيدِ مصرَ . وتستطيعين حتى من هذه الآثارِ أنْ تُكَوِّنى فكرةً عما كان عليه المصريون القدماء مِن قدرةٍ ومهارةٍ فى فنّ المعمارِ والبناءِ . فما كان ليتسنى لهم أن يُشَيِّدُوا هذه المعابدَ

والأبنيةَ العظيمة لو لم يكونوا على درجةٍ كبيرةٍ من العِلم والمعرفة بالهندسة .

وبعد فقد ألممنا فى هذه الرسالةِ والرسالةِ التى سبقتها بموجز لما تحدَّثْنا عنه فى جميع الرسائلِ السابقة . وفى الرسالة القادمة سنستأنف عَرْضَنا التاريخىّ مبتدئين الحديث فيه من حيث وقفْنـــا .

الرسالة الثامنة والعشرون

مجيء الآريين إلى الهند

لقد اقتصر بحثنا حتى الآن على العصورِ القديمةِ جدا ، والآن سوف نرى كيف ارتقى الإنسانُ وماذا فعل فى مراحل ارتقائه وتطوره . ولما لم يكن لدينا تاريخٌ بالمعنى الصحيح لكل هذهِ العصور القديمة لذلك سميت عصورما قبلَ التاريخ ، ومن ثَمَّ فكلُّ مانعرفُه عنها ليس الاَّ مجردَ حَدْسٍ وتخمينٍ .

والآن دعينا ونحن على حافَّةِ التاريخ ننظر ماذا فعل الإنسانُ فى الهندِ أولا . لقد رأينا فيما سلفَ أنَّ الهندَ فى العصورالقديمةِ كانتَ كمصرَ بلاداً ذاتَ مدنيةٍ . كانت هناك تجارةٌ وسفنٌ تحمل السِّلَعَ الهنديةَ إلى مصرَ وما بين نهرى دجلةَ والفراتِ وغيرهما من البلدان الأخرى . وكانَ سكانُ الهندِ فى العصورِ القديمةِ

يُسمّون بالدرافيديين، وهؤلاء عاشتْ ذراريهم فى الهند الجنوبية أو ما يُسَمّى الآن بمنطقة مدراس . وقد غزا الآريون من الشمال هؤلاء الدرافيديين ، ومن المحتمل أنه كان هناك جموعٌ كثيرةٌ من الآريين فى آسيا الوسطى وأنهم انتشروا فى أقطار أخرى حينما لم يَجدوا طعاماً كافيا لهم . لقد ارتحلوا فى جماعاتٍ كبيرةٍ إلى إيران وحتى إلى اليونان كذلك وما بعدها غربا ، كما أتوا إلى الهند فى حشودٍ حاشدةٍ حيث عبروا الجبال واستقروا على مقربة من كشمير .

والآريون جنسٌ من الناس معروفٌ بالقوةِ وحُبِّ القتال . ولهذا كانوا كلما نزلوا بمكان فى الهند حاربوا سكانه من الدرافيديين وطردوهم منه . ولا بد أنَّ أمواجاً إثر أمواج من هؤلاء الآريين قد أتت إلى الهندِ من الشمالِ الغربى . وربما تَصَدّى الدرافيديون فى أولِ الأمرِ للآريين ومنعوا تسربهم إلى الهند ، ثم لمـا أخذتْ سيولهم تتوالى وتتدفقُ عجزوا عن صدهم .

وقد بقى الآريون زمنا طويلا فى الشمال فى الأفغانستان والبنجاب ثم أتوا بعد ذلك إلى الجنوب إلى ما يسمى الآن بالمقاطعات المتحدة حيث نقيم نحن ، ثم استمروا فى الانتشار حتى

بلغوا جبال فيندهيا فى الهند الوسطى. ولصعوبة عبور هذه الجبال لِمَا تخلَّلَهـا من غابات كثيفةٍ ، ظَلّ الآريون زمنا طويلا على الجانب الشمالى لجبال فيندهيا . وقد استطاع بعضُهم أنْ يعبروا الجبالَ ويهبطوا إلى الجنوب . أمّا كثرتُهم فلم تستطعْ ذلك ، ولهذا بقى الجنوبُ فى الغالب موطناً للدرافيديين .

ودراسة مجىء الآريين إلى الهند موضوع شائق ممتع حقا ، ومن السهل عليك أن تعرفى الكثيرَ عنهم من كتبنا السنسكريتية القديمة . ولابد أنّ بعض هذه الكتبِ مثل « الفيدا » The Vedas قد كتبت فى عصرهم .

وأقـدم كتب « الفيدا » كتاب يسمى « الرِّجْ فيدا » The Rig Veda. ومنه يمكنك أن تكوّنى فكرةً عن أجزاء الهند التى استوطنها الآريون . ومن كتب الفيدا الأخرى وكذلك من الكتبِ السنسكريتية القديمةِ مثلِ كتاب «البوراناس» The Puranas نستطيع أن نعرف كيف استمر الآريون على انتشارهم .

وإذا جاز أنكِ لاتعرفين الاّ القليلَ عن هذه الكتب لصغر سنك فإنكِ بلا شكٍّ ستعرفينَ الكثيرَ عنهـا عندما تكبُرين .

وإنك لتعرفين حتى فى سنِّكِ الصغيرةِ هذه الكثيرَ من القصص التى أخذت من كتاب « البوراناس » The Puranas ثم شاعت بين العامة . وقد ظهر بعد ذلك بزمن طويل كتاب « الرامايانا » The Ramayana والذى ظهر فيما بعد على إثره كتاب « المهابهاراتا » The Mahabharata .

ومن هذه الكتبِ نجدُ أنَّ الآريين حينما عاشوا فى مقاطعة « البنجاب » والأفغانستان سَمَّوْا هذا الجزء من الأرض « براهمافارتا » Brahmavarta

وكانتِ الأفغانستانُ حينئذ تُسَمى « جاندهارى » Gandhari . هل تذكرين « جاندهارى » فى المهابهاراتا ؟ لقد سميت هكذا لاشتقاقها من كلمة « جاندهارا » أو الأفغانستان . وقد أصبحتْ الأفغانستانُ الآن قُطرا مستقلا منفصلا عن الهند ، ولكنها فى تلك العصور القديمة كانت هى والهندُ تكونان قطرا واحدا . وحينما أتى الآريون إلى سهول نهر الكنج ونهر جومنا The Jumna سَمَّوْا كل الهند الشمالية « أريافارتا » Aryavarta . وقد استوطن الآريون فى مدن على ضفافِ الأنهارِ ، شأنُهم فى ذلك شأنُ غيرهم من أبناء العصور القديمة . فمدينة كاشى Kashi أو بنَاراس Banaras أو براياج Prayag ، ومدنٌ أخرى كثيرة قد أقيمت كلُّها على ضفافِ الأنهار .

الرسالة التاسعة والعشرون

وصف ما كان عليه الآريون فى الهند

من المحتمل أنَّ الآريين قد نزحوا إلى الهند منذ أكثرَ من خمسة أو ستةِ آلافِ سنةٍ . ومن الطبيعى أنهم لم ينزحوا كلُّهم إلى الهند دفعةً واحدة ، والأقرب إلى المعقول أنهم نزحوا إليها خلال مئات السنين أسرةً إثر أسرةٍ وقبيلةً تلو قبيلةٍ وجيشا إثر جيش . تخيَّلهم مسافرين فى قوافل طويلةٍ وقد حملوا كلَّ أمتعتهم على عرباتٍ أو على ظهور الدوابِّ . إنهم لم يحضروا إلى الهند كما يحضر السائحون فى عصرنا الحاضرِ . أجلْ ، لم يحضروا ليعودوا بعد حين وإنما حضروا ليُقيموا وليقاتلوا أو يموتوا ، ومعظمُ هؤلاء كما حدثتُكِ من قبلُ أتَوْا مجتازين الجبالَ الواقعة فى شمال غرب الهندِ ، وربما أتى بعضُهم أيضا بالبحر من الخليج الفارسىِّ على مراكبَ صغيرةٍ حتى وصلوا إلى نهر السند Indus .

ولكن ما الحالة التى كان عليها أولئك الآريون ؟ نستطيع أنْ نعرفَ الكثيرَ عنهم من الكتب التى كتبوها ، وبعضُ هذه الكتب مثلُ « الفيدا » ربما كانت أقدمَ الكتبِ فى الدنيا . ولعل هذه الكتبَ لم تدوَّن فى أوّلِ الأمر وإنما حُفِظت عن ظهر قلب . وكانت تتلى ويُرَتَّلُ اللاّخرين ، لقد كُتِبتْ فى لغة سنسكريتية جميلة حتى ليُمْكِنُكِ أنْ تتغنَّى بها تقريبا . وإنه لمما يسُرّ النفسَ حتى اليوم أن تسمعى رجلا حسنَ الصوتِ يترنّم بالفيدا ويُرَتّلها باللغة السنسكريتية . والفيدا معتبرةٌ عند الهندوس من الكتب المقدسة جدا .

ولكن ما معنى كلمة « الفيدا » هذه ؟ إنها تَعنى « المعرفة » . والفيدا تتضمن المعرفةَ التى جمعها الحكماء من رجال العصور القديمة والذين كانوا يُسَمَّوْنَ « ريشيس » Rishis « ومونيس » Munis . لم يكن هناك فى تلك العصور القديمة شىء من مظاهر المدنية الحديثة كالسكك الحديدية والتليفون والبرق ولكنّ ذلك لا يعنى أن أبناء تلك العصور كانوا جهلةً ، فمن الناس من يعتقدُ أن حكماء تلك العصور كانوا أكثرَ حكمةً من حكماء عصرنا . ومهما يكن من أمر فسواء أكانوا كذلك أم لا ، فالواقع أنهم تركوا لنا كتُبًا عجيبةً لا يزال الناسُ

إلى يومنا هذا يستحسنونها ويُعجبون بها كثيرا . وهذه الحقيقة في ذاتها تُرينا ما كان عليه أبناء تلك العصور القديمة من عظمة الفكر .

والفيدا - كما قلتُ - لم تكن مكتوبةً في أول الأمر ، وإنما بَقِيَتْ محفوظةً في صدور الحُفّاظ من الناس يتناقلونها باللسان والمشافهة جيلا بعد جيل ، ولابدّ أن قوةَ الذاكرة والحفظ لدى أولئك الناس كانت قويةً عجيبةً . ولست أدرى كم منا يستطيعون الآن أن يحفظوا كتبا بأكملها عن ظهر قلب ! ويُعرَف العصرُ الذى دُوِّنت فيه الفيدا بالعصر الفيدىّ ، وأولها أو أسبقُها وُجودا هو ماسُمِّىَ بالرج فيدا The Rig Veda وهذه مليئةٌ بالأناشيد والأغانى التى اعتاد الآريون القدماء أن يتغَنَّوْا بها . ولابد أن قلوبَهم كانت عامرةً بالفرحِ والمرحِ وحُبٍّ المخاطرةِ ، ولابد أنها كانت خاليةً من الهم والكآبةِ والحزنِ . ولغلبة الفرح عليهم نظموا أغانى جميلةً وتغنَّوْا بها إلى الآلهة التى عبدوها . لقد كانوا فخورين جدا بأنفسهم وبجنسهم . ولفظةُ الآرى تعنى الرجلَ الشريفَ أو إنساناً من نوعٍ أرقى وأفضلَ . والآريون كانوا يحبون الحرية حبا جما ، ولم يكونوا كأحفادِهم وسلائِلهم الموجودين الآن

فى الهند ممن فقدوا الشعورَ بحريتِهم وقلتْ شجاعتُهم. ولقد كان الموتُ بالنسبة للآريين خيراً من العبودية وفقدانِ الشرفِ. وبالإضافة إلى ما سبق كانوا محاربين شجعانا، كما كانوا يعرفون قليلا من العلم وكثيرا عن الزراعة. وقد عَلَّقُوا بطبيعة الحالِ أهميةً عظمى على الزراعةِ؛ ومِن ثَمَّ قَدَّرُوا كلَّ ما من شأنه أنْ يَنهضَ بالزراعة.

وقد رأوْا أن الأنهارَ الكبرى أمدتهم بالماء ولهذا أحبُّوها ونظروا إليها نظرتَهم إلى الأصدقاءِ والمحسنين الكبارِ. والثورُ والبقرةُ ساعداهم أيضا مساعدة كبيرةً فى الزراعة وفى حياتهم اليومية، كما أعطتْهم البقرة كذلك من لبنها غِذاء، وقد اعتنَوْا بهذه الحيوانات وتغنَّوْا ببركاتها عليهم.

ثم مَرَّ على ذلك العهد زمنٌ طويل نَسِيَ فيه الناسُ فى الهند السببَ الحقيقيَّ فى عنايةِ قدمائِهم بالبقرة، ولهذا بدءوا يعبدُونها كأنَّ فى ذلك نفعاً لهم.

وإعجابُ الآريين بأنفسِهم واعتزازُهم بعنصرِهم دفعهم إلى التخوُّفِ من الاختلاط بغيرِهم من سكانِ الهندِ؛ ومِن ثَم سَنُّوا

من القوانين والقواعد ما يحول دون هذا الاختلاطِ، ومَا يجعلُ زواجَ الآريِّ من غيرِ عنصرِه أمراً متعذِّراً . وقد تطور ذلك فيما بعد إلى ما يُسمّى الآن بنظامِ الطبقات . ومما يُضحك أنّ الاعتزازَ الطبقيَّ قد بلغ إلى درجةٍ أن بعضَ الناس يخافون من لَمْسِ غيرِهم أو مؤاكلتِهم. وإنه لمن دواعي الغبطة أن هذه النزعة قد بدأت تَقِلُّ وتخِفُّ حِدَّتُها شيئاً فشيئاً فى عصرنا الحاضر .

الرسالة الثلاثون

الراماياتا والمهابهاراتا

بعدَ انتهاءِ العصر الفيديّ فى الهند ظهر ما يسمّى بعصر الملاحم. وقد سُمّى هكذا لأن الملحمتين الكبيرتين أو القصيدتين الطويلتين « الرامايانا والمهابهاراتا » اللتين تقصّانِ علينا وقائعَ الأبطالِ العظامِ قد كُتِبَتَا فيه . ففى أثناءِ عصرِ الملاحمِ انتشر الآريون فى شمالِ الهندِ حتى جبالِ فندهيا Vendhya وقد سُمّيَتْ كلُّ هذه الأرض « آرْيافارتا » كما أخبرتُك من قبل . وما يعرف الآن بالمقاطعات المتحدة، كان يسمى «مَادْهَيَادِيشَا» The Madhyadesha أو الهند الوسطى، كما كانت البنجال Bengal تسمى الفانجا Vanga

وبعد فهناك حقيقة هامة قد يسرك أن تعرفها ، هذه الحقيقةُ هى أنك إذا نظرتِ إلى خريطة الهنـدِ وتخيلتِ حيث كانت « آرْيافارتا » بين جبال الهملايا وفيندهيا فإنك سترَيْنها تبدو على

شكل هلال ومن ثَمَّ سميت أريافارتا « أرض القمر » . فلفظة الهند تعنى القمر وهكذا كانت أريافارتا أرض الهند[1] .

وقد كان الآريون مغرمين بهلال القمر ، ولهذا اعتبروا كلَّ الأماكنِ التى على شكلِ هلالٍ ، أماكنَ مقدسةً . وكثيرٌ من مدنهم الكبرى كمدينة بَنارَاس كانتْ على شكل هلال ، ولست أدرى إذا كنت تعرفين أنَّ نهر الكنج يبدو عند مدينة « الله أباد » على شكل هلال . والراما يانا كما تعرفين هى قصة « رام تشاندرا » و « سيتا » وحروبهما مع رافانا Ravana ملك لانكا Lanka المعروفة الآن بسيلان . وقصة الراما يانا الأصلية كتبها فالميكى Valmiki باللغة السنسكريتية ، وهناك ترجمات كثيرة لها فى لغات أخرى أحسنها ترجمة تولسيداس Tulsidas باللغة الهندية والمسماة راما تشاريتا ماناس Rama Charita Manas .

وتحدثنا الراما يانا بأنّ راما قد ساعدته القردةُ فى جنوبى الهندِ وأن « هانومان » Hanuman كان ملكَ القردةِ الكبيرَ . وقصةُ الراما يانا هذه قد تَكُون قصةَ حروب الآريين مع سكان

---

(١) الاسم الشائع لإنديرا والذى تعرف به هو « هند » أى « القمر » .

الجنوب الذين كان قائدُهم رافانا Ravana . ومن المحتمل أنّ القردةَ قد رُمِز بها فى القصة إلى سكان جنوبى الهند السود .

والرامايانا مليئة بالقصص الجميلة ولكنى لا أستطيع الإشارةَ إليها هنا. وإذا شئت فاقرئيها أنتِ لنفسك .

وقصةُ المهابهاراتا أكبر من الرامايانا وقد ظهرت بعدها بزمن طويل ،وهى تحدثنا لا عن الحروب بين الآريين والدرافيديين ، وإنما تحدثنا عن حروب كبيرة وقعت بين آريين وآريين ؛ أى بين الآريين أنفسهم . وهى بالإضافة إلى ذلك ملحمة عجيبة تَفيض بأفكارٍ عظيمة وقصص نبيلة . وهى بالإضافة إلى ذلك ملحمة أثيرةٌ على نفوسنا جميعا لاشتمالها على قصيدة كالدرة تسمى « بهاجافال جيتا Bhagaval Gita» .

هذان هما الكتابان اللذان كُتِبا فى الهند منذ آلاف السنين ، فمن ياترى يكون قد كتبهما غيرُ رجالٍ كبارٍ ممتازين ؟

ومع أنهما قد كتبا منذ زمن بعيد فإنهما لا يزالان يعيشان فى الهند إلى اليوم، عرفهما الأطفال صغارا وتأثروا بهما كبارا .

محتويات الكتاب

صفحة

الإهداء ١
مقدمة وقصة ٣
مقدمة الطبعة الأولى ٢٠
مقدمة الطبعة الثانية ٢٢

الرسائل

١ — كتاب الطبيعة ٢٥
٢ — كيف كتب أول تاريخ ٣١
٣ — خلق الأرض ٣٧
٤ — الكائنات الحية الأولى ٤٢
٥ — ظهور الحيوانات ٥٠
٦ — ظهور الإنسان ٥٥
٧ — الإنسان الأول ٦٢
٨ — كيف تكونت الأجناس المختلفة ٧٠
٩ — الإنسان — أجناسه ولغاته ٧٦
١٠ — علاقات اللغات ٨٢

١١ — ما هى المدنية	٨٨
١٢ — تكون القبائل	٩٢
١٣ — بدء الدين وتقسيم العمل	٩٧
١٤ — التغيرات التى مهدت لها الزراعة	١٠٣
١٥ — البطريق — كيف بدأ	١٠٨
١٦ — البطريق — كيف تطور	١١٣
١٧ — البطريق يصبح الملك	١١٨
١٨ — المدنيات الأولى	١٢٤
١٩ — المدن الكبرى فى العالم القديم	١٢٩
٢٠ — مصر وكريت	١٣٤
٢١ — الصين والهند	١٣٩
٢٢ — الملاحة والتجارة	١٤٤
٢٣ — اللغة والكتابة والأرقام	١٥١
٢٤ — طبقات الناس المختلفة	١٥٦
٢٥ — الملوك والمعابد والكهنة	١٦٠
٢٦ — نظرة إلى الوراء	١٦٥
٢٧ — الآثار وبقايا الحيوانات القديمة	١٦٨
٢٨ — مجىء الآريين إلى الهند	١٧٢
٢٩ — وصف ما كان عليه الآريون فى الهند	١٧٦
٣٠ — الرامايانا والمهابهاراتا	١٨١

تصويبات

ص	س	اقرأ
١٤	٤	كثيرا من الوطنيين
١٤	١١	ولا أتقهقر
١٧	٦	برسالة غاندى التى
٢٧	١١	fossils
٣٩	٧	فالشمس تبعد
٤٤	١٦	fossils
٤٦	١٩	أشبه ما تكون
٤٧	٩	ستلاحظين هنا أن النواة أو القلب
٤٨	٤	بملايين السنين
٤٨	١٦	غسلت الصخرة و تفتتت
٥٥	١٠	السلسلة الفقرية
٦٤	٦	البرونز[1] معروفين
٧١	٣	بينها
٧٤	١١	لعدة أجيال
١٠٩	٦	علينا أن نمدّ


دار الطباعة الحديثة

دار الطباعة الحديثة
٥ شارع غيط النوبي - ت ٤٩٣١٨